محمد عبد المنعم خفاجي

صور من الأدب الحديث

الجزء الرابع

ألوان من التراجم الأدبية

العقاد (١)

يفضل العقاد العزلة والسكنى بعيداً عن الناس ولا يعانى الصغائر ، ولا يهوى ضياع الوقت فيما يضيعه فيه الكثيرون ، وخير عنده أن يجلس إلى كتابة أو تأليف أو مطالعة ، من أن يقتل الوقت فى عبث المقاهى ، وتسلية النوادى ، وحفلات الشاى ! . . وهو مفكر منتج خصب الإنتاج يحتجز نفسه فى صومعة الأيام والأسابيع ، ويكاد لا يخرج إلا حين يضطره الخروج ، شأن العقبان وسباع الطيور .

وقد قيل لبشار بن برد : « لو خيرك الله أن تكون حيوانا ، فماذا تختار ؟ » فقال : « أختار أن أكون عقابا ، لأنه يعيش فى قمم الجبال حيث لا يبلغه إنسان ولا ذو أربع ، وتحيد عنه كلاب الطير ولا يعانى صيد الجيف » ! . .

والعقاد كريم النفس ، رقيق العاطفة إلى درجة غريبة . وقد مات صديقه « بيجو » فحزن عليه حزنا شديدا ورثاه رثاء تزهو به الكلاب على بنى الإنسان رثاه بقصيدة عامرة الأبيات ، ورثاه بمقال مسهب بليغ جاء فيه : « صور كثيرة بقيت فى خلدى من الاسكندرية كأنها صفحات مقسمة فى معارض الفن والحياة والتاريخ ، وستبقى ما قدر لها البقاء ، وسيكون من أبقاها وأولها بالبقاء صورة واحدة لمخلوق ضعيف أليف ، يعرف الوفاء ، ويحق له الوفاء . ذلك هو صديقى « بيجو » الذى فقدناه هناك . وإنى لأدعوه « صديقى » ولا أذكره باسم فصيلته التى ألصق بها الناس ما ألصقوا من مسبة وهوان ، فإن الناس قد أثبتوا فى تاريخهم أنهم أجهل المخلوقات بصناعة التبجيل وأجهلها كذلك بصناعة التحقير » ! . .

وقد قرأ العقاد كثيرا ، وألف كثيرا ودرس الحياة طويلا ، وكون له فيها فلسفة ضمنها كتابة « مجمع الأحياء » الذى وضعه منذ ثلاثين عاما بعد الحرب العالمية

---

(١) بقلم : طاهر الطناحى . والعقاد فى الثامنة والستين وقد بلغت مؤلفاته ٦٨ كتابا .

الأولى ، ثم أعاد طبعه بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد تناول فيه النضال بين الأهواء والمبادىء ، واستكناه وجه الحكمة . وأجرى حواره على لسان الحياة والطبيعة والإنسان والحيوان . وقد عقد هذا المجمع فى الغابة فى قلب إفريقيا حيث الأشجار الباسقات ، وفيها من الأحياء ما لا يوجد فى أعمر الحواضر عداده، ولا تنتهى على طول الزمن أمداده ، كواسر صارخة ، وعصافير صادحة ، وهوام صافرة ، ووحوش زائرة ، ودواب زاحفة هادرة ، وقد ضرب كل منهم على نغمته فتألف من لفظها المختلف موسيقى الطبيعة المبدعة ، وتناقشت وتجادلت فى لحوى الخير والشر والحياة والموت ، وكانت الكلمة فى النهاية للطبيعة والبقاء فيها لكواسر العقبان .

ويختلف عباس العقاد عن العقاب بأنه لايرحل كثيرا ، ولا يسافر من قطر إلى قطر ، بل يطوف بفكره وقرائه فى أرجاء العالم ، وكأنما رأى وسمع وعرف كل ما فيها ومن فيها . وهو ينقد بفكره النافذ ونظراته الثاقبة كل أمة من الأمم نقد عالم خبير . أما العقاب ، فهو سريع الطيران يفطر فى العراق ويتغذى فى اليمن ، ويتعشى فى مصر . ويرحل كثيرا ، ولكنه لايفقه شيئا من أمور البلدان شأن بعض الناس ممن يرحلون ولا يفقهون !

الدكتور محمد مندور

(١)

يعد الدكتور مندور من طبقة الرواد فى تاريخنا الفكرى والثقافى والأدبى ، وهو فى طليعة العاملين فى شتى ميادينا الاجتماعية ، ومن كبار كتابنا فى الأدب والنقد والصحافة والاجتماع .

وهو فريد فى كتابة المقالة الصحفية ، إذ حمل عبء التحرير فى الكثير من الصحف والمجلات السياسية والأدبية منذ مايقرب من العشرين عاما .

وهو كذلك كاتب اجتماعى ديمقراطى اشتراكى تقدمى فى الطليعة ، ولعله من أوائل الداعين إلى العدالة الاجتماعية فى حياتنا المعاصرة ، وكان الشعار الذى اختاره لجريدة الوفد المصرى التى تولى رياسة تحريرها منذ أمد « الدعوة إلى العدالة الاجتماعية » . ولمقالات الدكتور مندور السياسية والاجتماعية أثرها فى تعبئة الشعور الوطنى فى مصر ، وفى إشعال الثورة النفسية بين المواطنين على الاستعمار والإقطاع بما مهد للثورة السياسية التى قام بها جيش مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وكان لهذه المقالات صدى ضخم فى صفوف المواطنين إبان تلك الأيام الماضية ، وكان كل مصرى يحرص على قراءة مقالات الدكتور فى صدر الصحف التى كان يشرف على تحريرها ، وكنت من هؤلاء الحريصين عليها ، وكانت لاتفوتنى إلا نادرا ، ومنها كنت أقف على التطور السياسى فى حياتنا إبان ذاك يوما بعد يوم .

ومنذ أكثر من خمسة عشر عاما والدكتور مندور يحمل القلم ، واقفا فى صدر المكافحين الوطنيين ، لا يتردد ولا يتلعثم ولا يحجم عن أية تضحية وطنية ، ولا ينافق فى كلمة الحق ، ولا يجامل أحدا حرصا على منصب أو جاه أو نفوذ مما رفعه بين الكتاب المصريين إلى مستوى رفيع ، ومما جعل لمقالاته أثرها فى محيط المواطنين جميعا .

(٢)

وكان الدكتور فى صدر حياته الأدبية والجامعية ـ وعلى أثر عودته من أوربا بعد دراساته الكلاسيكية العميقة فى فرنسا ـ يميل إلى إيثار الناحية الجمالية فى الأدب ويدعو إلى العناية بالصياغة فى الأدب والشعر ويفضل الشعر المهموس على الشعر الخطابى كما يتضح من كتابه « فى الميزان الجديد » . ولكنه على أثر اشتغاله بالسياسة والاحتكاك بالجماهير أخذت البذرة الاجتماعية المستقرة فى نفسه والتى تظهر أمارتها فى كتابه « نماذج بشرية » تنمو وتتزايد بتأثير الحملات السياسية والاجتماعية التى قادها فى الصحافة ، حتى أصبح الآن يدافع عن الأدب الواقعى الجديد ويشجعه ، ويناصر فكرة الأدب للحياة ، وتطوير المجتمع ؛ حتى ليعد رائدا للفكر التقدمى فى ثقافتنا المعاصرة ، ولم يكن فى هذا التطور أى افتعال إرادى ، وإنما جاء نتيجة لملابسات حياته ، وتطور اهتماماته ، بانتقاله من الحياة الأكاديمية إلى الحياة العامة .

وهو الذى عرف بالتيارات والمذاهب الأدبية العالمية ، التى وضحت لنا حركة الأدب والنقد عند الغرب . بعد أن استعرض تاريخ النقد المنهجى عند العرب القدماء . وهو فى اتجاهه العام ديمقراطى اشتراكى واقعى .

وقد ساهم مساهمة كبيرة فى خلق الوعى السياسى والاجتماعى الذى تمخضت عنه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولذلك آزر هذه الثورة منذظهورها، وأيد انتصاراتها الوطنية والاجتماعية .

وفى المرحلة الأكاديمية من حياته تأثر بالثقافة اليونانية والفرنسية وبخاصة بأفلاطون وبرجسون . ومن بين النقاد العرب يظهر فى كتابه «النقد المنهجى عند العرب» إيثاره للآمدى صاحب « الموازنة بين الطائيين » ، وموازرته لمذهبه الذى يفضل سلاسة البحترى على تعقيدات أبى تمام ومحسناته البديعية التى طغت حتى أفقرت الشعر العربى وسيرته زخارف لفظية وعبث بالألفاظ ، وأفرغته من كل أصالة

وتجديد وابتكار ، بل وأحيانا من كل مضمون إنسانى فكريا كان أو عاطفيا . وفى هذا مايفسر تحمسه لشعر المهجريين الذى سماه بالشعر المهموس وأثار بسبب هذه الحماسة غضب الشعراء التقليديين .

وفى مرحلة حياته العامة يظهر تأثره بالمؤرخ اليونانى القديم « توسيديد » الذى ترجم له فى مجلة الثقافة خطبته الرائعة فى تأبين موتى حرب « البيلينيزيا » وحلل فيها الديمقراطية الأثينية وأسسها الفلسفية والروحية الجميلة . كما تأثر بأصحاب المذاهب الاشتراكية الذين كان قد قرأ لهم أثناء إعداده لدبلوم الاقتصاد السياسى فى جامعة باريس ، وبخاصة « سان‌سيمون » صاحب نظرية « لكل حسب كفايته ولكل كفاية حسب إنتاجها » ، وبينه وبين زوجته المتخرجة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة مشاركة فكرية ووجدانية عميقة ، حتى لقد آثرها بأن تقدم إلى القراء كتابه « نماذج بشرية » الذى يعتز به ، وإليها أهدى بعض كتبه .

وهو من الناحية الأخلاقية لايزال يعتز بأخلاق الريف المصرى ، ويرى فى والده مثلا أعلى يحتذى فى كرم النفس ومحبة الخير . وقد تتلمذ للأساتذة المصريين: طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى ، وكان يرتضى من الأستاذ أحمد أمين نزاهة قصده ، وصدق حكمه على الناس والأشياء ، كما كان يرتضى من المرحوم مصطفى عبد الرازق سماحة نفسه الفياضة ، وسيظل يذكر للدكتور طه حسين توجيهه له نحو الثقافات الغربية وبخاصة اليونانية والفرنسية وتمكينه له من دراستهما فى فرنسا .

وخاض الدكتور معارك أدبية كثيرة ، وممن ساجلهم انستاس الكرملى والاستاذ العقاد والأستاذ سيد قطب والأستاذ محمد أحمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . . وللدكتور مندور أسلوبه المتميز المستقل حتى لقد كان فى بدء عودته من فرنسا يفكر فيما يبدو باللغة الفرنسية ، ويترجم هذه الأفكار فى عملية مزدوجة إلى اللغة العربية ، مما أكسب هذه الأساليب جدة وأصالة ونفاذا .

وهو يعتبر المازنى من خير كتابنا المعاصرين إن لم يكن فى قمتهم ، كما يعتبر مطران الرائد الحقيقى لتجديد الشعر فى الشرق العربى . ويحمل إعجابا خاصا بالكاتب المهجرى الكبير ميخائيل نعيمة الذى تأثر منذ نشأته الأولى بكتابه «الغربال» . كما قاده كتاب «بلاغة العرب فى القرن العشرين» إلى شعراء المهجر وشعرهم المهموس الذى تحمس له حماسة بالغة وأطلق عليه عبارة «الشعر المهموس» التى تعتبر جديدة فى نقدنا المعاصر .

وقد كتب عن الدكتور مندور كناقد أدبى ومفكر بحوث فى كثير المجلات والكتب الأدبية مثل مجلة «الادب» و «الاديب» وفى كتاب الدكتور النويهى «ثقافة الناقد الادبى» فصل عنه . كما عرض الاستاذ السحرتى فى كتابه «الشعر المعاصر» لموقف الدكتور مندور من النقد وأبدى أسفه لتركه ميدان الادب إلى ميدان السياسة إذ ذاك .

هذا والدكتور من أسرة كبيرة عريقة من أصل عربى بمديرية الشرقية. وله خمسة أولاد : بنت وأربعة أبناء يدرسون فى المدارس المصرية المختلفة ، ووالده عبد الحميد موسى مندور من أعيان مركز منيا القمح وله الفضل على الدكتور فى تنشئته هذه النشأة العالية ، ولا زالت أسرة الدكتور تقيم فى «كفر الدير» من أعمال مركز منيا القمح بمديرية الشرقية ، وقد غير اسم هذه القرية إلى «كفر مندور»

(٣)

وللدكتور مندور مؤلفات عديدة تحمل طابعه الفكرى والادبى والتقدمى ، وتنم عن أصالة وابتكار وتجديد وموهبة عميقة متميزة ، ومن بينها :

(١) دفاع عن الأدب طبع سنة ١٩٤٣ وهو لجورج ديهامل ـ ترجمة وتعليقات .

(٢) من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث ، طبع سنة ١٩٤٤ . ترجمة لأربعة من أساتذة السوربون .

(٣) نماذج بشرية ـ نشر سنة ١٩٤٥ .

(٤) النقد المنهجى عند العرب ـ طبع سنة ١٩٤٦ .

(٥) فى الميزان الجديد ـ نشر سنة ١٩٤٥ .

(٦) منهج البحث فى اللغة والادب ـ ظهر سنة ١٩٤٦ عن دار العلم الملايين ترجمة من لانسون دمييه .

(٧) تاريخ إعلان حقوق الإنسان : ترجمة لألبير بابيه، وطبع سنة ١٩٤٨ .

(٨) فى الأدب والنقد ـ نشر سنة ١٩٤٩ ،

(٩) مسرحيات شوقى ـ طبع سنة ١٩٥٤ .

(١٠) ابراهيم المازنى ـ ظهر سنة ١٩٥٤ .

(١١) خليل مطران ـ طبع سنة ١٩٥٤ .

(١٢) الشعر المصرى بعد شوقى ـ ظهر سنة ١٩٥٥ .

(١٣) الأدب ومذاهبه ـ نشر سنة ١٩٥٥ .

(١٤) ولى الدين يكن ـ طبع سنة ١٩٥٦ .

(١٥) اسماعيل صبرى ـ طبع سنة ١٩٥٦ وهو والكتب الستة الأخيرة نشرها معهد الدراسات العالية التابع لجامعة الدول العربية .

(١٦) ترجمة مدام بوفارى لفلوبير ـ طبع سنة ١٩٥٥ (من مطبوعات كتابى) .

(١٧) وللدكتور كتاب مخطوط بالفرنسية عن « أوزان الشعر العربى » التى حللها بعد تسجيلها بآلة الكيموجراف (مسجل الموجات) وحللها إلى عناصرها الموسيقية المختلفة وقد نشر جزء من نتائج هذا البحث فى مجلة كلية الآداب جامعه الاسكندرية سنة ١٩٤٣ .

وهو يعد الآن كتابا يكمل «الشعر المصرى بعد شوقى» . كما يعد كتابنا آخر عن مشاهداته فى روسيا ورومانيا اللتين زارهما فى شهرى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٥٦ رئيسا لوفد الادباء المصريين المدعوين لزيارة هاتين الدولتين .

(٤)

والدكتور الآن عضو بلجنة المسرح التابعة للمجلس الأعلى للفنون والاداب ، وفى لجنة القراءة للتمثيليات التى تقدم للفرقة المصرية ، وفى لجنة اختيار الألف

كتاب التابعة لإدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم . كما لايزال مستمرا بالتدريس فى الجامعة وبعض المعاهد العليا .

وقد ولد الدكتور فى ٥ يوليو ١٩٠٧ وتلقى ثقافته فى :

(١) مكتب القرية وقد ظل به حتى سن الثامنة أى حتى سنة ١٩١٥ .

(٢) ثم المرحلة الابتدائية : بمدرسة الألفى بمنيا القمح حتى سنة ١٩٢١ .

(٣) ثم المرحلة الثانوية : بمدرسة طنطا الثانوية حتى سنة ١٩٢٥ .

(٤) ثم المرحلة الجامعية : بجامعة القاهرة ـ كلية الآداب (قسم اللغة العربية واللغات السامية) من سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٩ ، وكلية الحقوق من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٣٠ .

(٥) ثم درس بالخارج فى بعثة الجامعة المصرية إلى جامعة باريس : من سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٩ حيث درس فى السربون اللغتين اليونانية القديمه والفرنسية وآدابهما وفقه اللغة الفرنسية ودبلوم معهد الأصوات ، ودرس فى كلية الحقوق وحصل منها على الدبلوم العالى فى الاقتصاد السياسى والتشريع المالى .

(٦) ونال درجة الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ عن «النقد المنهجى عند العرب» .

وشغل الدكتور عدة مناصب مختلفة منها :

(١) التديس بجامعة القاهرة من سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ بكلية الآداب . وقد قام بتدريس الترجمة واللغة اليونانية وآدابها واللغة الفرنسية وآدابها .

(٢) التدريس بجامعة الأسكندرية منسنة ١٩٤٢ - ١٩٤٤ بكلية الآداب، حيث قام بتدريس الأدب العربى المعاصر والنقد الأدبى وتاريخه عند العرب والعروض على طريقة المقاطع الصوتية ولاتزال مستعملة فى تلك الكلية حيت يتولى تدريسها

تلاميذه . وفى هذه المرحلة الجامعية ابتدأ الكتابة فى مجلة الرسالة والثقافة وجمعت مقالاته فى كتابى «نماذج بشرية» و «فى الميزان الجديد» .

(٣) ومن سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٨ اشتغل بعد استقالته من الجامعة بالصحافة باعتبارها منبرا أكبر ، فرأس تحرير جريدة «المصرى» وجريدة «الوفد المصرى» وجريدة «صوت الأمة» وأصدر مجلة خاصة هى مجلة «البعث» وسجن عدة مرات بتهم سياسية برأه القضاء منها ، وكانت أطول مدة فى سنة ١٩٤٦ فى عهد وزارة صدقى بسبب معارضته لاتفاقية صدقى - بيفن سنة ١٩٤٦ مما حمل صدقى على اتهامه بالشيوعية ، واغلاق جريدتى «الوفد المصرى» و «البعث» إداريا .

(٤) ومن سنة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ : اشتغل أساسيا بالمحاماة .

(٥) وفى أواخر سنة ١٩٤٩ انتخب نائبا عن حى السكاكينى بالقاهرة وسافر فى آخر عام ١٩٥٠ إلى لندن للعلاج ، وظل كذلك عضوا بالبرلمان الوفدى إلى أن حل بعد حادث حرق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وكان رئيسا للجنة التربية والتعليم بهذا المجلس ، وعضوا فى اللجنة المالية ، ومقررا لميزانية وزارة التربية والتعليم .

(٦) ومن سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٦ عاد إلى الصحافة والتدريس بالجامعة والمعاهد العليا ؛ كمعهد الدراسات العربية ، ومعهد الصحافة ، ومعهد التمثيل والبحوث الفنية ، وكانت مساهمته فى الصحافة عن طريق المقالات السياسية والأدبية والاجتماعية فى جريدة «الجمهورية» و «الشعب» و «الأهرام» ومجلة «الثورة» و «الرساله الجديدة» و «الهدف» و «مجلة الاذاعة» ، والنشرة الثقافية لوزارة الارشاد التى تحولت الآن إلى مجلة «المجلة» ؛ وأخيراً تولى رياسة تحرير مجله «الشرق» التى تنشر مختارات من الثقافة الروسية ،

(٥)

ويسجل الدكتور مندور فى صدر كتابه « فى الميزان الجديد » بعض صلاته الأدبية بالدكتور طه حسين فيقول :

بنفسى لأستاذى الدكتور طه حسين ذكريات قديمة كلما عاودتنى أثارت اعترافاً بالجميل لا أستطيع نسيانه . فهو الذى وجهنى إلى الأدب مع أنى كنت منصرفاً فى بدء حياتى إلى القانون بكل رغباتى . وبالرغم من أنى قد انتهيت من دراسة الحقوق ، إلا أن توجيه هذا الأستاذ الكبير هو الذى غلب فى حياتى العلمية . وبمجرد انتهائى من الدراسة فى مصر تحمس لإرسالى إلى أوربا . ولقد حدث أن عجزت عن النجاح فى كشف النظر الطبى ، وكنت قد قدمت بحثاً عن ذى الرمة ليقوم مقام الامتحان التحريرى فى مادة من ليسانس آداب اللغة العربية فأخذ هذا البحث وذهب إلى وزير المعارف إذاك ليقرأ عليه فقرات منه فيكسبه إلى جانبى ، وبذلك يضمن استصدار قرار من مجلس الوزراء بإعفائى من هذا الكشف الطبى العويص . وهذا ما كان . وسافرت إلى أوروبا حيث وضعت لنفسى خططى الخاصة فى الدرس والتحصيل . وكان فى تلك الخطط ما لا يتماشى مع الخطط الرسمية ولاقيت من ذلك بعض العنت ، ولكننى كنت أجد دائماً إلى جوارى هذا الأستاذ الكريم .

ولقد أخذت عنه شيئين كبيرين هما : الشجاعة فى إبداء الرأى ثم الإيمان بالثقافة الغربية وبخاصة الاغريقية والفرنسية ، مما حملنى دائماً على الإحساس بأنه قريب إلى نفسى على الرغم مما قد نختلف فيه من تفاصيل .

(٦)

ومقدمة كتابه « فى الميزان الجديد » تفسر اتجاهه الذهنى فى ميدان الكفاح من أجل الأدب ، وهو اتجاه عمل لأجله الدكتور وتأثر به فى حياته العلمية ، ولكنه بعد هذه المرحلة عنى فى الأدب والنقد بالمضمون الأدبى أكثر من عنايته بشىء آخر، يقول الدكتور :

منذ عودتى من أوروبا أخذت أفكر فى الطريقة التى نستطيع بها أن ندخل الأدب العربى المعاصر فى تيار الآداب العالمية وذلك من حيث موضوعاته ووسائله

ومناهج دراسته على السواء . ولقد كنت أومن بأن المنهج الفرنسى فى معالجة الأدب هو أدق المناهج وأفعلها فى النفس : وأساس ذلك المنهج هو مايسمونه « تفسير النصوص » ، فالتعليم فى فرنسا يقوم فى جميع درجاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها ، وفى أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادىء الأدبية واللغوية بالعرض عرضاً تطبيقياً تؤيده النصوص التى يشرحونها . والجامعات الفرنسية لا تلقى بها محاضرات ولا دروس عن العلوم النظرية التى تتصل بالأدب ، فلا نحو ولا بلاغة ولا نقد بل ولا تاريخ أدب فرنسى ، وإنما يعالج كل ذلك أثناء شرح النصوص ، ومن هنا قلما نجد فى اللغة الفرنسية كتابا فى النقد الأدبى النظرى على نحو ما نجد فى اللغة الإنجليزية مثلا .

هذا المنهج التطبيقى هو الذى استقر عليه رأيي وإن كنت قد نظرت إلى ظروفنا الخاصة وحاجتنا إلى التوجيهات العامة ، فحرصت على بسط النظريات العامة خلال التطبيق كما اعتمدت على الموازنات لإيضاح الفروق التى لاتزال قائمة بين أدبنا وأدب الغرب . وهذا ما أرجو أن يجده القارىء فى الجزء الخاص بالأدب المصرى المعاصر من هذا الكتاب ، حيث لم أكتف بنقد روايات أو دواوين الحكيم وبشر فارس وعلى محمود طه ومحمود تيمور وطه حسين ، بل عالجت فى كل حديث مسألة عامة كالأساطير واتخاذها مادة للشعر أو القصص ، وفن الأسلوب والأدب الواقعى ، ومشاكلة الواقع فى القصة وما إلى ذلك . وفى كل حديث قدرت قيمة ما نفعله وما يفعله الأوربيون فى غير مجاملة ولا تحامل .

ولقد أثارت تلك المقالات ردوداً وأحاديث . وأحسست أننا سننزلق إلى المناقشات العامة التى يصعب تحديدها فى مجال الادب ، فلم أر بداً من أن أوضح اتجاهى العام بنقد بعض النصوص نقداً موضعياً أحاول أن أضع فيه يد القارىء على ما أحس من مواضع الجمال والقبح ، ووقع اختيارى على بعض قصائد وكتابات لأدباء

المهجر، وأحسست فى أدبهم من الصدق والألفة ماوقع فى نفسى موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس ، وأكثر الظن أن الكذب فى التهامس أقل بكثير منه فى الجهر ، ولربما كانت هذه الحقيقة النفسية هى السبب الأول فى تسميتى لهذا الأدب بالأدب المهموس . ولقد تساءل نفر من الأدباء عن سر إعجابى بهذا الأدب وافترضوا الفروض التى قد يقبل الذوق الأخلاقى السليم بعضها بينما يأبى البعض الآخر . ولقد سجلت بعضاً من أصداء هذه المناقشات فى ذلك الجزء من الكتاب وذلك لما نفثت فيها من حرارة الإيمان ، ثم لأنها تتمم آرائى وتوضحها بما تعالج من مسائل عامة .

وفى أثناء دراستى لتلك النصوص ـ التى تحدثت عنها وعن غيرها مما تناولت بحكم عملى فى الجامعة كمدرس للأدب ـ أخذ يتكون فى نفسى منهج عام للنقد . ولقد ركزت هذا المنهج فى جزئين من هذا الكتاب يجدهما القارىء فى الفهرست تحت عنوانى : مناهج النقد ـ تطبيقها على أبى العلاء ، المعرفة والنقد ـ المنهج الفقهى . وباستطاعة القارىء أن يلاحظ أنه منهج ذوقى تأثرى وذلك على تحديد لمعانى تلك الألفاظ . فالذوق ليس معناه النزوات التحكمية ، وجانب كبير منه ـ كما وضحت فى مقالى عن الأدب ومناهج النقد ـ ماهو إلا رواسب عقلية وشعورية نستطيع إبرازها إلى الضوء وتعليلها ، وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التى تصح لدى الغير ، وإن كنت لا أنكر أنه ستبقى فى نهاية الأمر أشياء من الشاق أن نحمل الغير على الإحساس بها . ولقد سبقنى إلى تقرير ذلك كبار نقاد العرب أنفسهم كالآمدى والجرجانى على نحو مايرى القارىء فى مقالاتى عن المعرفة والنقد . ثم إننى وإن كنت أؤمن بأنه ليست هناك معرفة تغنى عن الذوق التأثرى ، إلا أننى مع ذلك أحرص على أن يكون الذوق مستنيراً ، وفى هذا المجال مجال الاستنارة أميز بين نوعين من المعرفة : فهناك المعرفة الأدبية اللغوية وهذه هى الأساس ، فقراءة مؤلفات كبار الشعراء والكتاب هى السبيل إلى تكوين ملكة الأدب فى النفوس وليست هناك سبيل غيرها ، وذلك على أن تكون قراءة درس وفهم وتذوق ، وأما

مادون ذلك من أنواع المعرفة كالدراسات النفسية والاجتماعية والأخلاقية والتاريخية وما إليها فهى وإن كانت عظيمة الفائدة وتثقف الأديب ثقافة عامة وتوسع آفاقه ـ إلا أنى لا أريد أن تطغى على دراستنا للأدب كفن لغوى ، وأنا مؤمن بأنه من الواجب أن يستقل الأدب بمنهجه عن غيره من العلوم ، وأنه من الخطر أن يطبق عليه منهج أى علم آخر أو أن يأخذ بالنظريات الشكلية التى يقول بها العلماء فى الميادين الأخرى .

ولقد حرصت على أن أورد فى الجزئين الأخيرين من الكتاب أمثلة لنوعين دقيقين من المعرفة التى تسبق النقد وهما « أصول النشر » و « أوزان الشعر » ، فمن واجب المشتغل بالآداب أن يحيط علماً بأمثال هذه المسائل ، وذلك لأنه إذا كانت دراسة الأدب فى نهاية الأمر هى تذوق النصوص فإنه لاغنى لمن يريد ذلك التذوق من أن يتأكد أولا من صحة النص الذى أمامه ومن استقامة وزنه وكيفية تلك الاستقامة إن كان شعراً . ولقد نظرت فى هذا الكتاب عندما انتهيت منه فأحسست أن فيه ما يكفى القارىء الذى يمعن النظر ليخرج منه بالأصول العامة للأدب ودراسته » .

(٧)

ودراسات الدكتور مندور فى الأدب والنقد والاجتماع والسياسة يتجلى فيها طابعه الخاص المستقل الهادف . وأسلوبه المتميز المطبوع القوى المعبر عن أفكاره ومعانيه وآرائه تعبيرا قويا واضحا ، حتى لكأن ألفاظه كما يقول النقاد القدامى « قوالب لمعانيه ، ومعانيه قوالب لألفاظه » .

والدكتور يؤمن بديمقراطية الأدب . إيمانا قويا ، فهو يتناول فى أدبه مشكلات الناس والمجتمع والوطن ، ويتحدث عن الأدباء الكبار والناشئين على حد سواء ، ويقدم لقرائه مؤلفات الأدباء والشعراء من الشبان ، ولا يفرق بين الكتابة عن مطران أو عن محمد فوزى العنتيل ؛ فالجميع على اختلاف طبقاتهم فى الأدب والشعر على حد سواء فى وجوب دراسة أدبهم والاهتمام به وبنقده ، ومن ثم فهو يختلف

تمام الاختلاف عن طبقة أخرى فى مصر من الأدباء توقف أدبها ودراستها ونقدها على كبار الأدباء وعلى المتصلين بهم ، وترفض تشجيع مواهب الأدباء الشباب والتحدث عنهم إلا فى مقام الذم والتثبيط .

وهذا الاتجاه أيضا كثيراً ما دفع بالدكتور مندور طول حياته الصحفية إلى تشجيع المواهب ، والاهتمام بأدب الشباب ، وتقدير إنتاجهم تقديرا يقوم على الحرص على النزاهة فى الحكم ، والإنصاف فى النقد ، والعمل على خلق طبقات عاملة فى محيط الأدب والشعر والنقد .

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

٢٣ ديسمبر ١٩٠٢

(١)

أديب من أدبائنا النوادر الذين جمعوا إلى الشخصية الجذابة ، النبوغ الأدبى . ووهب نفسه للأدب وخدمته خدمة صادقة منذ ثلاثين عاما أو يزيد .

وهو مثال إنسانى حى على الأخوة الإنسانية والتعاون الأدبى ، والروح المتوقد لخير الأدب والأدباء .

بدأ حياته الأدبية بعد النضج وجال قلمه فى المجلات الأدبية والصحف اليومية والإقليمية ، ودبج المقالات النقدية والاجتماعية والسياسية ، كما دبج تراجم العظماء وكبار الأدباء من غربيين ومصريين .

وفى حقبة من عمره ، نظم الشعر ، وأخرج ديوانا جديدا أسماه ، أزهار الذكرى » ذكرى عشر سنوات قضاها فى بلده الصغير الجميل ، وتقع هذه الحقبة بين عامى ١٩٣٤ ، و ١٩٤٤ .

ويقول أبو شادى فى تقديمه لهذا الديوان فى شعر السحرتى : هو شاعر مفكر ذو رسالة رفيعة فى شعره ، هى رسالة الإنسانية التى يؤمن بحقها الأول عليه إيماناً عميقا . وثانى ما نلمسه فى شعره تهالكه التصوفى على الطبيعة فى سذاجة لطيفة غالباً . ثم روح الإصلاح الاجتماعى أو الدينى الذى يتناول تناولا شعريا . ثم شعر الحب الممزوج بالصوفية الفلسفية الصادق الحرارة . وما فى شعره من قدرة وصفية قرينة لطاقته الشعرية الممتازة . وهو موسيقى الطبع فى كل ما ينظم على تباين شعره . إنه شاعر روما نطيق ، أحب الطبيعة والريف حباً خالصا فاندمج فى روحيهما ، وعبر عنها بشعر عذب صادق فى طلاقة جميلة لا تحمل تنافراً لفظيا

ولا يشينها خلل موسيقى ، ولا تأسرها قيود صناعية ، ولا تنزل بها رغبة لإرضاء الجماهير . . . وليس السحرتى ممن يحترم مبدأ الفن للفن ، ولكنه يؤمن بأن الفن للحياة فى أسمى معانيها . . . . إنه ليس له وثبات ناجى ولا رمزيات الصيرفى ، ولا غنائيات صالح جودت ، ولا وجدانيات الشابى ، ولا وصفيات الشوباشى ، ولا ديباجة السنوسى أو الجهنى ، ولا ترسل عثمان حلمى ، ولكن له أسلوبه الموسيقى المتحرر ، وصوفيته الساذجة الحلوة ، وريفياته الجميلة وعواطفه الإنسانية الحارة ، وطاقته الشعرية النابغة ، وله قبل ذلك وبعده فنه الذى يعتز به ويدعو إلى الاعتراف به بين شعراء المدرسة الحديثة الموهوبين .

وكيف لا يكون ذلك وهو الجامع ما جمع من الطلاقة البديعة والخيال الرائع والموسيقى المستحدثة فى نظامهو نظامه لا يقلد فيه أحداً ، وإن تجاوب مع أقرانه من أعلام النهضة الشعرية فى العالم العربى . وهذا التجاوب الشامل علامة من علامات الشاعرية القوية ، كما أن احتفاظه بشخصيته علامة أخرى من علاماتها القوية ، وحسبك أن تفترض حرماننا نماذج هذا الشعر الحديث فتشعر بالفراغ الذى تشغله شخصية السحرتى الشاعر ، وإن أبى عليها إلا التواضع أو التوارى ، كأنما ذلك من أصول فنه العميق .

ثم هجر ميدان الشعر وتحول إلى ميدان النقد ، والبحث الأدبى ، وصار علما من أعلام هذا الميدان ، بما اتسم به من ثقافة واسعة ، ونزاهة نادرة ، وخلق كريم .

وكتابات السحرتى من نبع شخصيته الناضجة ، وإنسانيته العميقة ، وذهنه الناضج ، وروحه التاثر النفاذ .

وقارىء أدبه يلمس فيه صورة من هذه الشخصية ، ونفحة من مبادئه المبلورة

فى حب الجمال ، وحب الطبيعة ، وحب الخير ، وحب الحرية والديمقراطية الغالية . وليس أوصف للسحرتى من قول « الدكتور أحمد زكى أبو شادى » عنه فى تصديره لكتابه « أدب الطبيعة » :

« ليس مصطفى عبد اللطيف السحرتى إلا الأديب الإنسانى بأوفى معانيه ، وهو بفطرته شاعر الطبيعة المطبوع فى جمالها ومعانيها إلى أبعد ما تلهمه الشاعرية الصحيحة ، وهو رجل مكتمل الأخلاق ، ناضج الإحساس ، متزن التفكير يدين بالإنسانية فى صميم وجدانه وينبض فؤاده بنبضات هذا الكون العظيم » .

(٢)

ولقد اتصلت بالسحرتى وتوثقت علاقتى به منذ عام ١٩٤٦ فعرفت فيه إنسانا طيب السيرة والسريرة ، إنسانا هادىء النفس ، دمث الخلق ، حلو الحديث ، إذا لاقيناه تفتحت نفسه فى نفوسنا ، وأفاض روح المرح والفرحة والأمن فى قلوبنا .

إنسانا يعرف الزمالة الحقيقية ، ويعرف كيف يعامل الناس معاملة رقيقة ، ويغفر زلاتهم . ويهتم بشئونهم اهتمامه بنفسه ، فهو إنسان يؤمن بالفرحة والسعادة والأمل الوردى ، أو بمعنى آخر إنسان يعرف فن الحياة » .

قارىء ديوانه « أزهار الذكرى » يقع على شواهد من هذه النزعة المتفائلة من قصائده ، ونذكر على سبيل المثال قصيدته « الفرحة » التى جاء فيها :

فمالى لا أسر بلا قيود ... وأبسم فى غدوى أو رواحى
وأنسى الهم إن الهم ثقل ... يهدد فى المساء وفى الصباح
وأمرح مثل عصفور سعيد ... وألتمس المنى فى كل ساح
فما الدنيا سوى جذل وأنس ... ولذات جنين من الكفاح

وليس يدوم للإنسان شيء   سوى البسمات واللهو المباح
وللبسمات سحر أى سحر   ووحى مشرق فى القلب ضاحى

(٣)

هذا هو الدواء الروحى المقوى الذى عالج السحرتى به أدواءه , وشفى به كثيرا من المتصلين به ، الدواء الذى استخلصه من تجاريب الحياة الجادة المريرة ، وتغلب به عليها ، فإذا طاف به طائف من الهم أو الكدر نحاه بروحه المرحة ، وفلسفته الرواقية التى لا تأبه بالهموم والآلام ، وفى قصيدته «الوحدة» «والمرح» «وشفاء الروح» «وضحكة» يكشف لنا عن مطاردته للهموم ، باللواذ إلى الطبيعة ، واللواذ إلى نفسه القوية ، وفلسفته الرواقية ، فيقول مثلا فى قصيدته «المرح» وهى من الشعر الحر الذى كان من رواده منذ أكثر من عشرين سنة :

أيها السائر فى دنيا الظنون   قد تولتك شجون وهموم
هاهم الموتى بأطباق الثرى   وظلال الحزن تطفو فوقهم
ليت شعرى لم تبق مثلهم ؟ !

ويقول فى قصيدته «ضحكة» :

سأضحك للوجود بملء قلبى   وأهتف للطبيعة حلو هتف
وأهزأ بالهموم وإن توالت   فتنقشع الهموم سحاب صيف
وأرسل ضحكتى فى الجو تسرى   فيحضنها الأثير كخير إلف
هها ها هها ها هها ها

(٤)

وتاريخ حياة السحرتى ، التى عرفنا لمحات منها يدل على أنه رجل عجيب ، يختلف عن الناس ويسمو على بيئته ، ويميل إلى أن يعيش عيشة فكرية وروحية خالصة .

ولم يقتبس من وراثته وبيئته إلا ما اتسق مع هذا النزوع .

فقد تقوت محبة الطبيعة لديه فى موطنه « ميت غمر » وهو بلد رومانتيكى جميل، تحيط به مياه النهر المقدس من جهاته الأربع ، وتحف به الحدائق والحقول .

وورث من والده الحاج عبد اللطيف السحرتى وكان من كبار تجار هذا البلد . الصراحة والذكاء والميل إلى الفكاهة ، ومن والدته الطيبة والتواضع ، ورقة الحاشية .

وتفرد فى أسرته بالعزوف عن المادة ، لما وقر فى روحه من شفافية ، ولهذا كان أعظم من بيئته ووراثته .

وفى جميع مراحل دراسته من ابتدائية وثانوية وعالية ، كان ميله إلى الناحية الأدبية بارزا ، وتأثره بأساتذة اللغة العربية والأدب تأثرا قويا .

ويحدثنا الأستاذ السحرتى عن هذه الناحية من حياته فيقول :

« تلقنت أول تعليمى « بالكتاب » وحفظت به بعض سور القرآن ، وكرهت معلمه لقساوته ، وكنت أهرب من مكتبه . ثم أتممت دروسى الابتدائية بمدرسة ميت غمر ونلت الابتدائية عام ١٩١٦ ، وكنت مغرما باللغة العربية والانجليزية والتاريخ ، وأذكر بحنان عميق أستاذى الشيخ مصطفى الزفتاوى ، ونماذج الإنشاء التى كان يمليها علينا ونحفظها عن ظهر قلب وأعدها بذرة أولى فى تحبيب العربية إلى نفسى .

«وتلقيت تعليمى الثانوى بمدرسة كشك بزفتى ومدرسة الأقباط بميت غمر ، حيث نلت شهادة الكفاءة وأكملت دراستى الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية حيث نلت البكالوريا عام ١٩٢٢ . ولا أذكر من أثر فى من الأساتذة فى هذه المرحلة إلا أستاذ اللغة الانجليزية بمدرسة الأقباط مصطفى البلقينى ، وأعزو الفضل فى إجادتى لهذه اللغة إلى هذا الأستاذ الضليع ، ولا أنسى فضل أستاذين كبيرين كانا بمدرسة الزقازيق ، وهما الأستاذ مصطفى عامر أستاذ الجغرافيا ، وأحمدالعدوى أستاذ التاريخ فى ذاك الوقت وما كان يفيضان على وعلى زملائى من مودة ، وما كان يطرقان فى أثناء دروسهما من موضوعات اجتماعية وفكرية يثيران بها شوقنا إلى البحث ، ويزرعان بها فى نفوسنا بذور الحرية الفكرية» .

وعند انتهائى من المرحلة الثانوية ، وقفت مترددا بين الالتحاق بمدرسةالمعلمين والحقوق ، وانتهيت إلى إيثار الثانية ، حيث نلت إجازة الحقوق عام ١٩٢٦ .

«وظل شوقى إلى الأدب متوهجا بنفسى فى غضون دراستى القانونية ، وكان وقتى موزعا بين الأدب والقانون ، فكنت أبدأ بمطالعاتى الأدبية لأفتح شهيتى إلى الدروس القانونية ، واستساغه مادتها الجافة » .

(٥)

وما كاد السحرتى ينتهى من دراسته القانونية بالقاهرة حتى أحس بصدوفه عن المحاماة ووجد حلا ظاهريا فى الذهاب إلى باريس لنيل دكتوراه الحقوق ، ولكنه ما كاد يستمع إلى الدروس حتى اجتواها ، وانصرف عنها إلى الأدب ، فالتحق بجامعة السربون عام ١٩٢٦ أيضا ، كما التحق بكلية الدراسات العالية لدراسة الصحافة ، وأنفق باقى وقته بالمكتبة الأهلية ، والاختلاف إلى المحاضرات العامة التى كانت تلقى فى المعاهد المختلفة فى الأمسيات ، ولكنه لم يستمر طويلا بباريس إذ عاد بعد أشهر إلى القاهرة واشتغل بالمحاماة ستة عشر عاما حتى أواخر عام ١٩٤٢ وتعد الفترة القصيرة التى قضاها فى باريس نقطة تحول فكرى فى حياته ، وفى

توسيع آفاق معارفه ، وتقوية إيمانه بالحرية والديمقراطية الحقة .

يقول السحرتى : « فى جو باريس امتلأت رئتاى بنسيم الحرية ، وتايد إيمانى بالديمقراطية وأحببت باريس الأدبية التى فاضت حساسيتها على نفسى وأثار ذكاؤها ذهنى .

وقد سجل أثر باريس فى سبع مقالات طوال كتبها عنها بمجلة السياسة الأسبوعية فى عدد ٥ مارس ١٩٢٩ إلى عدد ٢٥ أبريل ١٩٢٩ وهى مقالات نابهة تليق بأن تضم فى كتاب مفرد .

وسجل إلهامات باريس الديمقراطية فى عدة بحوث طويلة كتبها بجريدة وادى النيل فى نوفمبر ١٩٢٨ والشرق الجديد - يناير ١٩٢٩ والبلاغ يوليو عام ١٩٣٠ ، وهذه المقالات جديرة بأن يضمها كتاب مستقل .

ولا ينسى السحرتى أثر هذه الرحلة فى حياته فيقول :

قد لا أكون مغاليا إذا قلت إن رحلتى على الباخرة من الاسكندرية إلى مرسيليا هى أجمل رحلة فى حياتى ، وآثرها إلى قلبى ، لما امتلأت به عيناى من مشاهد خلابة .

ولست أنسى ما حييت لقائى على الباخرة بتاجر هندى مثقف - كان يبيع الماس فى باريس .

فقد كان يروى لى فى هذه الرحلة أمجاد الهند وأعمال رجالها العظام وبخاصة الزعيم الروحى العظيم غاندى .

ويقول السحرتى : « إن غاندى أثر فى توجيهى تأثيراً كبيراً فى حقبة من حياتى فلقد تجاوبت روحى معه تجاوبا قويا ، واتخذت شخصيته مثالا لى فى كثير من أعمالى ، وبلغ من تأثرى بتعاليمه أنى كنت أقضى يوما من أيام الأسبوع صائما

ومعتكفا عن الناس ، للتأمل والمطالعة »

« كما أثرت شخصية « سعد زغلول » المغناطيسية وبلاغته الساحرة ، واتجاهاته الديمقراطية الوطنية في نفسي أعظم التأثير »

(٦)

ولقد اشتغل السحرتي بالمحاماة ببلدة « ميت غمر » ستة عشر عاما . كان فيها مثالا للمحامي النزيه الشريف الكفء . وقرن إلى جهوده في المحاماة ، جهوده الأدبية الممتازة ، فكتب في المجلات الأدبية والصحف اليومية مقالات أدبية واجتماعية نابهة ، ونذكر منها مجلة السياسة الأسبوعية . ومجلة « الأدب الحي » ومجلة السفير والرسالة ومجلة الطلبة المصريين وجريدة البلاغ ، والوادي . ـ وكانت مجله السياسة الأسبوعية هي مجلته المفضلة والتي لم يخل عدد من أعدادها منذ عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣١ من مقال له ، ودارت مقالاته حول الأدب الفرنسي . وتراجم العظماء والأدباء غربيين ومصريين ، ونذكر من هذه المقالات :

(١) الرومانتزم ولامارتين (٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٧) .
(٢) الصحافة في البلاد المتمدينة (١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧) .
(٣) العبقرية والعبقريون (٢٨ أبريل سنة ١٩٢٨) .
(٤) الحزبية والوطنية . . .
(٥) أثر الخير والشر في الجمال والفن (٥ مايو سنة ١٩٢٨) .
(٦) أسباب الحرب الكبرى ونتائجها (١٦ يونيو سنة ١٩٢٨) .
(٧) الإجرام في مصر أسبابه وعلاجه (سبتبر سنة ١٩٢٨) .
(٨) الأدب القومي (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٠) .
(٩) الخيال وأثره في الحياة (١٤ أبريل ١٩٣٤) .

ويعد السحرتى من خيرة كتاب التراجم ، فقد كتب ترجمات فنية موفقة بالسياسة الأسبوعية ، وغيرها من المجلات ، وهى جديرة بكتاب مفرد ، ومن هذه التراجم سقراط (بمجلة السياسة الأسبوعية فى ٧ يناير سنة ١٩٢٨ ، وترجمة الأديب الألمانى «جيت» ونشرت بالسياسة الأسبوعية فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٧ — وترجمة بديعة للشاعر الفارسى العظيم «السعدى الشيرازى» ونشرت بالسياسة الأسبوعية ، وترجمة للأديب الروسى «تولستوى» بمجلة السياسة الأسبوعية فى ١٨ مايو سنة ١٩٢٩ وترجمة للأديب الفرنسى «روسو» بالسياسة الأسبوعية فى ٤ اغسطس ١٩٢٨ — والشاعر الأمريكى الجهير «هويتمان» بالسياسة الأسبوعية فى ٢ فبراير سنة ١٩٢٩ والصحافى المصرى الجرىء — أمين الرافعى» وهى منشورة بالسياسة الأسبوعية فى ٣ يناير سنة ١٩٣١ ، كما نشر ترجمة بمجلة «الطلبة المصريين» عن شكسبير فى ١٩ يناير سنة ١٩٢٨ وترجمة أخرى لغاندى وترجمة لطاغور بالمجلة السابقة فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٨ . وكتب مقالا مفصلا بجريدة البلاغ عن «المنفلوطى» فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٩ و بمجلة الرسالة عن شخصية ابن خلدون فى ١٧ سمبتمبر سنة ١٩٣٤ ، كما تناول غير هذه الشخصيات الاثنى عشرة ، شخصيات أخرى لا يتسع المجال لذكرها .

(٧)

ولم تقف جهود السحرتى على عمله الخاص بالمحاماة ، ولا على أعماله الأدبية ، بل أنه أسهم إسهاما إيجابيا فى الحركات الوطنية والديموقراطية فى بلده والبلاد المجاورة ، وكان مثالا للوطنى الديموقراطى النزيه والمجرد من الغايات ، والمترفع عن التحزب والتعصبات ، ويذخر له بنو وطنه المحبة والتقدير كلما جرى اسمه على الأفواه ، ويذكرون له خطبه الوطنية المهذبة وبخاصة خطبته فى عهد الإرهاب عام ١٩٣٨ التى ضمنها المبدأ الدستورى «الملك يتولى ولا يحكم» وخطبته عام ١٩٥١ عن «الاستغلال والمستغلين» التى كان لها وقع مدو لدى الجمهور .

كما يذكرون له جهوده الثقافية الاجتماعية الإيجابية فى إقليمه ، وجهاده فى رفع معنوية الجماهير ، وإيقاظ أرواحهم وتنقيتها .

ونذكر من هذه الجهود تكوين جمعية اجتماعية فريدة لتعليم المشردين ، وأبناء الفقراء ، بعض الحروف والصناعات ، وإنشاء فصول ليلية بالمدارس الإلزامية لتعليم العمال والكبار الأسنان القراءة والكتابة ومساهمته الفعلية فى معاونة المتعففين من الفقراء والعاجزين عن العمل ، وتحريره جريدة الإقليم « الوقت لتنوير الناس وتوجيهم توجيها طيبا ، وقد كان يملأ قلبه صفحات هذه الجريدة ، وقد اطلعنا على بعض من أعدادها فإذا بنا نعجب من هذا الجهد القلمى الدائب لتثقيف أبناء إقليمه ، ففى العدد ٤٦٢ المؤرخ ٢٧ يوليو سنة ١٩٣٩ نجد مقالا بعنوان « بين الجمود والتجديد » ، ومقالا آخر « فى المرآة » بقلم م - لطفى وهو وهو الاسم القلمى الذى استعاره لمهرمقالاته . وكل عدد وقفنا له عليه كان يحوى أكثر من مقالين ، ولمحتين أو ثلاث متناثرة فى كل عدد .

(٨)

ولقد تخللت الفترة التى قضاها بالمحاماة فترة تعد من أخصب الفترات فى حياته الأدبية ، إذ اتصل فى أوائل عام ١٩٣٤ بجماعة « أبولو » وتعرف إلى زعيمها الدكتور أبو شادى . وكان واسطة التعارف بينهما الأستاذ عبد العزيز عتيق وكيل إدارة الثقافة حاليا بوزارة التربية والتعليم .

كما تعرف إلى أدبائها وشعرائها ، وعلى رأسهم ناجى والصيرفى وزكى مبارك وصالح جودت ، ومختار الوكيل ، وحسن محمود ، والسحراوى . وغيرهم من أدباء الحركة الابتداعية فى مصر .

وكانت صداقته لأبى شادى من أكرم الصداقات التى عرفت بين الأدباء ، كانت صداقة مضرب مثل فى ذلك المحبة والوفاء ، وفى ذلك يقول السحرتى : « كانت

صداقتنا صداقة نقية عاملة ، صداقة فكرية وروحية معا .

وكانت آراؤه التقدمية فى ذلك الحين مصدر إلهام زاخر لى ، كما كانت كتاباته النثرية المركزة من العوامل القوية التى جذبتنى إليه .

ولم أكن بنزعتى الواقعية أميل إلى الشعر الخيالى ، ولكنه حببنى إلى الشعر ، وأوحى إلى تأليفه حتى تمكنت فى عام ١٩٤٣ من إخراج ديوان « أزهار الذكرى » الذى جمع أكثر شعره من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٤٣ » .

وأذكر بالامتنان تصديره النبيل الجامع لهذا الديوان ، والذى يفسر روحه الكريمة الوفية ، والذى جاء فيه عن الديوان :

« فأنا إذ أتناول شعره بالعرض إنما أمازج نفسه الحلوة وفكره الناضج وطبعه النبيل ومواهبة المتألقة : التى طالما جذبتنى إليها فنهلت من عذوبتها وقبست من إشراقها » .

« حقا لقد تأثرت فى يفوعتى وصدر شبابى بأدب المنفلوطى وأسلوبه . كما تأثرت بعده برواد الأدب وأعلامه فى الجيل الماضى ، وعلى رأسهم الدكتور طه والدكتور هيكل وغيرهما ولكن أحداً منهم لم يؤثر فى تأثير الدكتور أبى شادى » .

وفى أفياء جماعة أبولو تجلت طاقة السحرتى الأدبية ، فكتب فى مجلة أپولو ورأس تحرير مجلة الإمام ، كما ساهم هو والدكتور إسماعيل أدهم فى تحرير مجلة أدبى التى اقتصرت على أدب أبى شادى وأدب أصدقائه الحميمين ، كما أخرج فى عام ١٩٣٧ كتابه المدرسى البديع « أدب الطبيعة » وقد صدره الدكتور أبو شادى بمقدمة جامعة جاء فيها :

« إن « أدب الطبيعة » هو من صميم الأدب الدينى العالى ، وهو كتاب أخلاق رفيع ، وسجل ثمين للوجود الحى ، وهو تعريف متزن بالشعر العصرى ، وعرض جميل

لآداب مأثورة عند العرب والانجليز والفرنسيين ، والأمريكان قديما وحديثا إلى جانب روائع الأدب المصرى القديم ، وصفحات الكتاب على وفرتها تضم أكثر مما تبدى ، لأن الأسلوب المركز الذى اشتهر به المؤلف هو خير ما قل ودل ، وهو مع ذلك بعيد كل البعد عن الإبهام أو التعقيد» .

وفى مجلة الإمام جال قلمه جولات موفقة وكتب مقالات نابهة ، ونذكر من من هذه المقالات ثلاث مقالات كتبها فى نقد وتحليل كتاب «ابن الرومى» للعقاد ومقالة عن «البارودى» فى عدد خاص أخرجه ، ومما يستحق التنوية بحثه الفياض عن «سعد العظيم» وقد صدر به عدد خاص من الإمام فى ست وعشرين صفحة ، وهو من أمتع البحوث التى ظهرت الآن عن سعد زغلول .

ولم تقف جهود السحرتى فى هذه الفترة على الكتابة فى مجلات أپولو ، بل دبج مقالات فى المجلات المصرية ، ومن بينها مجلة الرسالة ومجلة «الأدب الحى» التى كان يصدرها الأستاذ إبراهيم المصرى ، ومجلة الأسبوع التى كان يصدرها الأستاذ فرنسيس دوس ، ومجلة « أبو الهول » ومجلة السفير التى كانت تصدر بالأسكندرية وغير من المجلات .

(٩)

وفى أواخر عام ١٩٤٢ ضاق السحرتى بحياة الريف ، ولم يجد كثيرا من اللذة فى المحاماة ، فالتحق بالعمل الحكومى بالعاصمة فى أوائل عام ١٩٤٣ وكيلا بقسم الدعاية والنشر بوزارة الوقاية لكى يجد فى جو العاصمة مجالا لدراساته الأدبية ، وقراءاته .

ولكنه ما كاد يدخل الوظيفة حتى شعر من أول يوم ، أنه وضع نفسه باختياره فى سجن ، وفى ذلك يقول السحرتى «لقد شعرت بعد طلاقى فى الريف ، بأنى وضعت اللجام فى فمى ، وخلفت من ورائى ذكريات سعيدة ، وهجرت أعمالا

خيرة لا أستطيع إتيانها فى العاصمة وحثوث الرماد على تراث كان يمكن أن ينمو ويزدهر لولا مفارقة البلد الصغيرة» .

وقد وقعنا له على قصيدة لم تنشر يعرب فيها عن لواعج نفسه ، وضيقه فى بداية اشتغاله بالحكومة ، ويقول فيها :

أقصيت نفسى عن فضاء واسع   وحبستها فى أضيق الجدران
وشعرت أنى قد أضعت طلاقتى   وهى الملاذ الحـــر للإنسان
فرجعت أعذل هذه الروح التى   هامت بمصر وأضرمت تحنانى
أشبعت بغيتها بهجرة موطنى   وأتيت أنشد فرحة الوجدان
فإذا الهناء الآل فى هذا الورى   وإذا الحقيقة مرة الجنانى

ولم يعرف فضل السحرتى فى عمله الحكومى ، مع إخلاصه وتفانيه فى عمله ، وشجاعته فى إبداء رأيه ، فقد نقل إلى وزارة التجارة بعد إلغاء وزارة الوقاية واشتغل بالقسم التشريعى بها بالتحقيقات ، ثم ضم أخيرا إلى النيابة الإدارية ، حيث اشتغل رئيسا لقسم النيابة بوزارة العدل .

والمعروف أن الوظيفة لم تقيده بأغلالها ولا روتينها ، فهو لايزال كالعهد به ، الإنسان الديموقراطى الحر والأديب المترفع الزاهد عما يجرى وراءه الموظفون عادة من التماس الحظوة ، أو الجرى وراء ترقية ، وفى كل مكان يحل به ينشر حوله جوا من المرح ، والزمالة الحقيقية التى لايعرفها الرؤساء إلا نادرا .

وهو مع مايبذل فى عمله الحكومى من جهد ولغوب ، فإنه ليتكىء على نفسه عاملا فى الحقل الأدبى ، ولا غاية له إلا إنتاج صنائع أدبية ثابتة ، ولبنات قوية فى بناء الأدب ، غير ناظر إطلاقا إلى أى غنم مادى من وراء عمله الأدبى

(١٠)

ويتوج جهوده الأدبية فى هذه الفترة كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » الذى أخرجه فى عام ١٩٤٨ ويعد من المراجع القيمة فى دراسة النقد الأدبى المعاصر .

ونذكر له بالفخر جهوده البناءة فى رابطة الأدب الحديث ، وما يلقى فى ندواتها من محاضرات نفيسة مدروسة ، ونذكر منها محاضرته عن « فن القصة القصيرة » « وفن الشعر » وفن النقد الأدبى ، وفن الصحافة ، « وفن المسرحية ، وفن المقال الأدبى » و« الأصالة الفكرية » « والجموح القلبى » وغيرها من المحاضرات التى لا يتسع المجال لذكرها ، وتؤلف كتابا ضخما .

ولم تقف جهود السحرتى عند التأليف والمحاضرة ، ولكنه يكتب بين حين وآخر فى المجلات الأدبية الشهيرة ، وقد خص المقتطف بمقالات : نابهة كما جال قلمه فى مجلة الميزان والأديب المصرى فى عام ١٩٤٩ — ونشر طائفة من المقالات فى مجلة « الأديب البيروتية » وغيرها من المجلات ، ونذكر بخاصة أربعة مقالات كتبها بالمقتطف عن « فن المراجعة والتعقيب » وهى مقالات رائدة فى هذه الناحية كما نذكر له بحثه الطويل المنشور عن « خليل مطران » ويعد من أمتع البحوث فى دراسة هذا الشاعر العظيم .

ومما كتبه فى الأديب البيروتية دراسات عن شخصيات الشعراء « ناجى ، وأبو شادى ، ومحمود أبو الوفا ، والتيجانى » وهى دراسات سيكولوجية فريدة فى بابها .

ولا يميل السحرتى فى كهولته إلى نشر إنتاجه الأدبى . بل يؤثر إيداعه سجلاته الأدبية . وكثير من بحوثه الأدبية والسيكولوجية ، مخبوءة لديه للاختمار ، كما يقول ، ومن هذه البحوث نذكر بحثه عن « الأصالة الفكرية » الذى نشر منه كلمة فى مجلة « ليالى الأدب » التى أخرجتها رابطة الأدب الحديث فى عام ١٩٥٦ ، وبحثه عن « التقدمية

كما أفهمها » ، وبحثه عن « سيكولوجية الشخصية » وسيكولوجية الحب » وبحثه عن « فن الكتابة » وغيرها من البحوث .

ولسنا ندرى سببا لتخلف السحرتى عن نشر هذا الإنتاج ، وكل ما يمكننا قوله هو أنه يريد أن تخرج كتبه بعد نضج واستواء تنم عن فكره وشخصيته فى اكتمالها ، وكثيرا ما يقول لنا : « نحن لا نزال نقف على عتبة المحراب ، فلنقف فى خشوع وسكون وابتهال ! » :

(١١)

وجل اهتمام السحرتى فى الوقت الحاضر . موجه إلى النقد الادبى ،وهو يرى أن مهمة الناقد مهمة شاقة عسيرة ، ومسئولية خطيرة أمام نفسه وفنه ومجتمعه ، وهو فى ذلك يقول فى صدر كتابه « الشعر المعاصر » :

« إن النقد الادبى من أعسر الامور وأشقها لأنه يتطلب ثقافة واسعة وموهبة فنية عالية وتنها وجدانيا مرهفا وروحا سمحا متجردا عن آثار الميل والهوى » .

ويقول بعد ذلك فى الكتاب ذاته : « وللنقد الأدبى اليوم قضية مركبة عويصة تحتاج إلى قضاة عدول صارمين فى الحق ، ولا يساغ النقد بدفعة من دفعات العاطفة ، أو نزوة من نزوات النفس ، أو خطرت من خطرات الهوى ، ولا بلمحة من لمحات الذكاء ، بل لابد من ضمير حى ، وبراءة من الميل ، وتجاوب مع روح المنقود ، واقتران بآثاره اقتران مودة ، والرجوع إلى جوه وبيئته ، وشخصيته ، ودراية ذكية بالأصول النقدية وأحدث مذاهب النقد المعاصرة ، فإذا تعذر التجرد النفسى وعسرت الزمالة بالمنقود واستحال التكيف بالجو الذى شدا فيه الأثر الأدبى وترعرع . وتجوهلت شخصيته المنقود ، وقلبت الزكانة بالقواعد النقدية ، فلن يصح نقد ولن ينصف منقود » (١) .

والملحوظ فى نقده الأدبى الاعتدال والاتزان فى الحكم ، والميل إلى الخلق ،

---

(١) كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث (ص ٥)

والنزوع بطبيعته السمحة إلى الكشف عن الحسنات دون الجرى وراء السيئات ، وإذا وجد فى العمل المنقود أن لا مفر من التنبيه على السيئات ذكرها فى رفق ولباقة وعفة قلمية .

وهو يتحاشى نقـد الأعمال الأدبية الضعيفة وطالما سمعناه يقول : « من العبث نقد الصنائع الأدبية التافهة لعدم جدواها ، ولأن الزمن كفيل بوضعها الظلال » .

وكم خرجت دواوين ، وكتب أدبية . ومجموعات قصص قصيرة لشعراء وكتاب ، وقصاصين ، أهديت إليه ، فلم يحرك قلبه للكتابة عنها ، لاعتقاده أنها من الزبد التافه الذى تطرده أمواج الحياة . وليس الناقد فى حاجة إلى إبراز سخفها وتفاهتها ، لأن الحياة كفيلة بوأدها ، والحياة فى جهادها أقوى من أقلام النقاد .

وبطبيعة عمل السحرتى فى المحاماة سنين طوال ، فإنا نراه يميل إلى الناحية الواقعية وإلى الأسلوب المباشر فى كتابته ، وبطبيعة ذوقه المرهف يستهويه الفن ، ولهذا نراه فى نقده يهتم بالبناء الفنى للعمل الأدبى وبموضوعه على السواء ، ولن يفتنه إلى أى موضوع خطير إذا وهن تعبيره ، وتخلخل بناؤه الفنى .

(١٢)

وأخيرا وليس آخراً ، فإن السحرتى فى حياته رجل يدين بالحضارة والثقافة ، ويؤمن أعمق الأيمان بحرية الفكر ، والديموقراطية الحقة ، كما يؤمن بطبيعته المتزهدة المتصوفة ، وبالقيم الروحية العليا ، حب الخدمة العامة ، والتعاون، والإيثار ، وحب الحق وحب الخير .

وفى هذه الإلمـامة من حياة السحرتى تنـكشف هذه الخلال فى مراحل حياته ، تنـكشف عن إنسان وديع ذكى الفؤاد ، لمـاح الفـكر ، يجلل وجهه الهدوء والطمأنينة ، وفى قلبه ثورة هادئة ذكية ، ثورة الوطنى الذى يبغى لوطنه التقدم الحقيق ، ثورة الأديب الذى يحب التحرر ويعشق الفن ، ثورة الموظف الذى يكره البيروقراطية الحـكومية ، ثورة الإنسانى على الظلم والظالمين ، والمنافقين ، والنهازين ، ثورة المفـكر على السطحية والضحالة والتعالم والغرور .

محمد عبد المنعم خفاجى (١)

(١)

أديب يخطو إلى الثانية والأربعين ، فى صدره عزيمة الشباب ، وعلى ظهره أعباء سنين طوال ، قضاها مجاهدا مكافحا فى سبيل خدمة الثقافة والأدب ، وعلى تجاعيد وجهه تلوح سمات المحتد وعرافة الأصل وطيبة النفس والتصميم على مواصلة الكفاح فى رحلة شاقة إلى المجد ، والاعتماد على النفس دون محاولة للاستعانة بجاه أحد أو بنفوذه .

ومن وراء ذلك كله تسعون مؤلفا ينوء بحملها جلد إنسان ، وذكر ذائع فى كل مكان من أرجاء العالم العربى والإسلامى ، واعتزاز من كثير من المفكرين به وبأدبه .

وقد كتب عنه من المقالات ما لا يمكن حصره ، ونشرت عنه دراسات عديدة من أهمها :

(١) كتاب صورة من الفكر المعاصر تأليف الأستاذ فكرى أبو النصر
(٢) « من رواد الأدب المعاصر « « حليم مترى
(٣) الكتاب العربى

وعنه كتبت تراجم فى كتب عديدة من أمثال : الأزهر فى ألف عام ، وبنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ، ونشر كثير من شعره فى كتاب « مع الشعراء المعاصرين » وفى ديوانه « أحلام الشباب »

(٢)

ويمكننا أن نتعرف إلى المذهب الأدبى عند أديبنا فى كتبه ، مما يمكن تلخيصه فيما يلى :

---

(١) بقلم : فكرى أبو النصر

(١) يؤمن أديبنا بضرورة الملكة الأدبية والموهبة الذاتية كأساس لبناء الأديب من الجانب الفنى والثقافى ، ومن ثم نجده يحيل كل الخصائص الذاتية التى تميز أديبا عن أديب إلى أثر هذه المواهب .

(٢) ويرى أن الثقافة الأدبية الحديثة الأديب يجب - فوق تناولها لجميع الثقافات الممكنة - أن تتناول التعرف إلى جميع الثقافات الأدبية القديمة والحديثة والمعاصرة عند جميع الشعوب ، ومن ثم يحرص على الاتصال بروائع الآداب الأوربية المترجمة ، ويرى وجوب التعاون والإخاء الأدبى بين الأدب العربى وهذه الآداب . كما يرى وجوب دراسة الآداب الشرقية عامة والعربية خاصة عند جميع الشعوب التى يتصل تاريخنا بتاريخها وحياتنا بحياتها ومن أجل ذلك أسهم فى نشر كثير من الآثار الأدبية القديمة والمعاصرة لأدباء من أبناء مصر والبلاد العربية . وبحثه عن الشعر السودانى المعاصر الذى نشره فى كتابه « قصص من التاريخ » يعد بحثا جامعا أصيلا جديدا .

(٣) وأديبنا يرى أن الأدب لا بد أن يخدم هدفا اجتماعيا أو قوميا أو إنسانيا ، وإلا فقد جزءا كبيرا من مقوماته ، ومن أجل ذلك نراه فى كتابته عن الأدب المعاصر يشيد بروائع الآثار الواقعية فى الأدب والشعر (راجع مقدمة كتابه قصص من التاريخ) .

(٤) وهو مع ذلك يرى أن الأدب المعاصر تنقصه الملكة والذوق البلاغى ، كما أن الادب القديم كان ينقصه الاتجاه والمذهب والرسالة ، ومن أجل ذلك فهو يبشر بأدب جديد تتجلى فيه خصائص الأدبين أكثر وضوحا عما هى عليه الآن .

ومن صور آرائه فى الادب الحديث ما كتبه فى مقدمة كتابه « قصص من التاريخ » بعنوان (الادب والحياة) قال :

« الأدب لم يعد اليوم ترفا وفنا خالصا ، وتصاوير مزخرفة منمقة وبلاغة

أدبية محضة ، ولم يعد يقصد للترفيه والتسلية وقطع الوقت ، وليس الادب مقصورا على إثارة الشهوات الجنسية كسبا لجهور القراء الفارغين التافهين ، وليس بخورا يحرق فى مواكب الطغاة تمجيدا وتسبيحاً بحمدهم ، ولا دعاية تنشر لتضليل الرأى العام وإلهائه وكسبه بجانب الديمقراطية أو غيرها ، فلم يعد لأمثال هذه الآداب بيننا قيمة ، ولم يعد القارىء المثقف يؤمن بمثل هذا الأدب الأجوف ، ولم تعد أحكام النقد وقفا على طائفة من الكتاب والنقاد المضللين ، الذين ساروا فى كل ركب ، ومشوا تحت لواء كل موكب ، ووقفوا حياتهم على الدعاية لسياسة الغرب باسم الصداقة والأحلاف والديمقراطية فى الشرق العربى .

ونحن نبدأ عهداً أدبيا جديدا نحطم فيه هذه الأصنام الزائفة ، وهذه الأقلام الجوفاء ، وهذه الأغراض التى تاجرت بحريتنا الفكرية والأدبية ، وأخضعت الأدب لأهواء السياسة ومشيئتها ، وأثرت على حساب الأدباء المساكين .

نحن نمقت هذه العصابات الأدبية الضالة ، التى قتلت النبوغ وحاربت الفكر وضاقت ذراعا بمواهب الشباب من الأدباء فقبرتها ، وسخرت الأقلام للتسبيح بحمدها بين الناس .

أصبح الأدب يدعو إلى الحرية والكرامة والحياة الطيبة للأفراد والجماعات والشعوب ، الحرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والكرامة التى تدع الإنسان مؤمنا بأنه لم يخلق عبدا لإنسان ، وإنما خلق إنسانا يشعر بكرامته الإنسانية وقيمته فى المجتمع ، والحياة الطيبة التى تتكافأ فيها الفرص ، وتتساوى فيها المواهب ، ويجد فيها كل إنسان له عملا لائقا ، وعيشا شريفا ،ومستوى ماديا مناسبا وعناية واحدة من الحاكمين ، والتى تنعدم فيها الفروق بين الناس ، وتقل فيها المشكلات أمام الفرد ، فلا يضطر إلى الانتحار لأنه لا يجد الخبز لنفسه وأولاده ، ولا يعيش متسولا عالة على الناس ولا يقعد به المرض أو الجهل عن أن يعيش وأن تحفظ عليه كرامته فى وطنه . . يجب أن يكون الأدب اليوم صدى الحياة المدوى ، وصوتها المجلجل فى كل سمع ، ولسانها المعبر عن آمال الإنسانية

وآلامها وأفراحها وأحزانها وسعادتها وشقائها ، وأن يعبر فى وضوح عن حياتنا التى نحياها : حياة الفلاح فى حقله ، وحياة العامل فى مصنعه ، وحياة الموظف فى وظيفته ، وحياة الفتاة التى نادينا بحريتها ، وحطمنا الأغلال دونها ، ثم لم نعمل شيئا فى سبيلها ، لتستطيع الاحتفاظ بحريتها الطبيعية التى تحميها لها الحياة ، فلم نساعدها على العمل الشريف ولا على الزواج المناسب ، وعلى حياة الأسرة الهادئة ، وتركناها وحدها فى الميدان ، تقضى حياتها محرومة من الزوج السعيد الصالح ، والأولاد الذين تتشوق فى لهفة إليهم .

والوضوح والبساطة والجمال والصدق هى الخصائص الادبية الاولى . والعناصر الفنية الاساسية لكل أدب جميل بليغ . ولكن خلود هذا الادب وذيوعه يتوقف فوق ذلك على مضمونه وعلى أن يكون الادب إنسانى النزعة ، رفيع الهدف والغاية ، يعمل مساعدا لنواميس الحياة على التقدم والنهضة والازدهار » .

(٣)

والعوامل الثقافية التى أثرت فى عقلية أديبنا ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — العامل الأول : ثقافة الأسرة ، وهى أسرة تنتمى إلى أصول عربية قديمة بسط صاحبنا تاريخها فى كتاب خرج منه حتى الآن تسعة أجزاء — ومن هذه الأسرة أعلام قديمة وحديثة ومعاصرة من الأدباء والعلماء والشعراء والكتاب ، وهو كتاب « بنو خفاجة » .

٢ — العامل الثانى : ثقافته فى الأزهر الذى عاش فيه تلميذا من سنة ١٩٢٧ إلى ١٩٤٦ حيث تخرج من كلية اللغة العربية يحمل شهادة « العالمية من درجة أستاذ فى البلاغة والأدب ، وتعادل الدكتوراه حرف (ا) من الجامعات المصرية — وتخول لحاملها التدريس فى كليات الأزهر وكليات الجامعات المصرية ، وكانت الرسالة التى قدمها هى « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » وهى مطبوعة .

٣ - العامل الثالث : مطالعاته الشخصية فى الأدب قديمه وحديثه ويقول لنا : إنه حتى تخرجه طالع ما لايقل عن خمسة آلاف كتاب فى الأدب عدا الكتب الثقافية الأخرى .

٤ - اتصاله الوثيق بالبيئات والمدارس والمذاهب الأدبية المعاصرة ، ودراساته فى كلية اللغة لتلاميذه .

٥ - الاستعداد الشخصى والملكات الذاتية ، التى تكون لصاحبها أفكارا ثقافية وأدبية خاصة متميزة .

٦ - اتصاله المباشر بالبيئات الثقافية الأجنبية وكان لعمله فى الليسيه الفرنسية مدرسا بها أثر ما فى حياته ، وكذلك اتصاله بالعديد من العناصر والبيئات الثقافية .

(٤)

ومؤلفات الخفاجى تنقسم إلى عدة مجموعات :

١ - فالأولى طائفة من المؤلفات فى الدين ، ومن بينها : الإسلام دين الإنسانية الخالد ، الإسلام وحقوق الإنسان ، الإسلام رسالة الإصلاح والحرية ، مبادىء الإسلام الخالدة (بالاشتراك) ، من ماضى الإسلام وحاضره (بالاشتراك)، الذكر الحكيم ، مأثورات نبوية .

٢ - والثانية كتب فى التاريخ ومن بينها : بنوخفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى وهو فى تسعة أجزاء ، الأزهر فى ألف عام وهو فى ثلاثة أجزاء ، قصة التصوف فى مصر ، الصوفى المجدد .

٣ - كتب فى النقد ومن بينها : مذاهب الأدب ، فصول فى النقد ، موقف النقاد من الشعر الجاهلى ، وحدة القصيدة فى الشعر العربى ، حكومة القاضى الجرجانى فى النقد الأدبى .

٤ ـ كتب فى التاريخ الأدبى القديم والحديث والمعاصر ، ومن بينها : الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، الادب العربى بين الجاهلية والإسلام ، الأدب العربى فى ظلال الامويين والعباسيين ، وهما (بالاشتراك) ، والأدب العربى وتاريخه وهو فى أربعة أجزاء (بالاشتراك) .

وقصة الأدب فى مصر ، وهو فى خمسة أجزاء ، قصة الأدب فى الأندلس وهو فى خمسة أجزاء ، قصة الأدب المعاصر وهو فى أربعة أجزاء ، قصة الأدب فى الحجاز بالاشتراك مع الأديب الحجازى عبد الله عبد الجبار وسيقع فى عدة أجزاء ، صور من الأدب الحديث وهو فى اربعة أجزاء .

٥ — كتب فى تاريخ أعلام الأدب العربى ، ومن بينها : ابن المعتز وأثره فى الأدب والنقد والبيان ، رائد الشعر الحديث وهو فى جزءين ، أعلام الأدب فى عصر بنى أمية فى جزءين ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، أعلام الأدب العربى (بالاشتراك) ، الشعراء الجاهليون ، مع الشعراء المعاصرين .

٦ — كتب فى الأدب ومن بينها : فصول فى الأدب ، من بلاغة العرب وهما بالاشتراك ، نداء الحياة ، التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى ، وسواها .

٧ — كتب فى البلاغة العربية ومن بينها الإيضاح فى البلاغة فى ستة أجزاء وعبد القاهر وأثره فى البلاغة العربية ، والبلاغة العربية .

٨ — كتب فى اللغة العربية وهى عديدة

٩ — كتب قديمة نشرها الخفاجى وحققها وهى عديدة كذلك ، ومن بينها : البديع لابن المعتز ، فحولة الشعراء للأصمعى ، قواعد الشعر لثعلب .

ورسائل ابن المعتز ، إعجاز القرآن للباقلانى ، فصيح ثعلب ، مقامات الحريرى بشرح الشريشى ، وسواها .

وللخفاجى مقدمات لكتب كثير من الأدباء المعاصرين ، وممن كتب عنه : الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، والناقد مصطفى السحرتى . روكس العزيزى . عبدالله زكريا الأنصارى . عبد الله عبد الجبار . محمد سعيد العامودى . وديع فلسطين .

حسن جاد . حليم متري . أحمد الزين صاحب مجلة العرفان بلبنان . الشيخ محمود النواوي . كامل أمين . محمد فوزى العنتيل . رضوان ابراهيم . ابراهيم الواعظ من أدباء العراق . عبد المسيح حداد . أحمد الشرباصي . كامل السوافيري . فكرى أبو النصر . جميلة العلايلي . أبو الوفا التفتازاني . أبو السعود الجهني ، وسواهم .

(٥)

ومن شعر الخفاجى قصيدته « الشهداء » :

بطولتهم لكل فتى نشيد ... وذكر فدائهم أبدا جديد
ومجد جهادهم فى الدهر باق ... يضن به على الدهر الخلود
شباب للعلا ثاروا غضابا ... تناديهم وقد ثاروا الجدود
مشيئة مصر أن تحيوا كراما ... فذودوا عن حقوق الشرق ذودوا
حياة العز أو موت زؤام ... ولا يجدى التردد والقعود
دعاهم للعلا داع فهبوا ... جنود فى نضالهم أسود
فما يلهيهم فى الروع وعد ... ولا يثنى عزائمهم وعيد
أباة والأبى يعيش حرا ... كأن مضاءه القدر العتيد
يثور على الحديد فلا حديد ... ويزأر فى القيود فلا قيود
وينهض للعظائم فى جلال ... ويفعل ما يريد كما يريد
لمصر حياتهم كانت فداء ... وشعب تلك غايته يسود
هم الشهداء قد ضحوا كراما ... فكل بين واديه شهيد
ويوم فدائهم للمجد ذكرى ... ويوم جهادهم للشرق عيد
هم الكرماء قد بروا وجادوا ... ويحيى ذكرهم بر وجود
قبورهم تفوح شذا وعطرا ... وتحفوها الأزاهر والورود
وفى البيداء تخشع فى جلال ... ويخشع من جلالتها الوجود

كسى الشهداء تلك البيد مجدا تشيد بذكره أرض وبيد
وليس لما بنى الشهداء مثل وليس لتضحياتهم نديد
ويهتف باسمهم شعب أبى تكاد الأرض إذ غضبوا تميد
عزيز أمسه الماضى كريم طريف مجده الباقى تليد

(٦)

ويقول الشاعر المصرى كامل أمين ، من قصيدة له وجهها إلى الخفاجى :

يا أخا الخير «ياخفاجة» والخير شباب الندى وروح الحياة
كل أرض نما بها البر روح ألبسته الحياة ثوب النبات
قد عهدناك يا أخى تعبر الناس فتسعى بهم كسعى الفرات
تبعث اليأس القنوط من الآمال كبعث الحياة بعد الممات

***

يا أخى أين يوم كنت ألاقيك وكلى مجرح من كفاحى
لم أجد فى الحياة لما تمزقت سواك امرأ يداوى جراحى
كنت أجتاز زحمة الناس كالبيد خوت لم تفض بغير الصياح
ضحلة البر والتعاون تجتر الشحاح الندى بها من شحاح

***

كم أرتنى الخطوب من صور الناس زيوفا قد فتحت عينيا
رب خدن طننته ملء كفى نفض الخطب من يديه يديا
كان كالشوك لانبات ولا ظل وإن كان كالنبات نديا
فإذا فزت من تجارب دنياك بحر كسبت بالحر دنيا

***

يا أخى كيف مد سحرك فى الليل فمد الصباح بين بيانك
ريشة الساحر الصناع بكفيك وسحر البيان تحت لسانك
وخيال الحديث يجذب كاللحن فاذا عزفته فى كمانك
الكمان الذى استحال يراعا هز داود فيه من ألحانك

(٧)

وفى قرية صغيرة قديمة من أعمال مركز المنصورة ، تسمى « تلبانة » ، ولد الخفاجى فى ٢٢ يوليو عام ١٩١٥ بين أحضان الطبيعة الجميلة فى الريف ، وبين الفلاحين المكدودين المرهقين الذين يعيشون فيه عيشة تجمع إلى البساطة سذاجة التفكير ، وإجهاد العيش ، وشظف الحياة .

وفى إبان الحرب العالمية الكبرى ، وما تلاها من أحداث الثورة الوطنية المصرية عام ١٩١٥ ولد ونشأ الخفاجى . . تنطبع فى ذهنه صور من كفاح الحياة والإنسانية ومن جهاد مصر فى سبيل حريتها وآمالها ، هذا الجهاد الذى ظل أمداً طويلا شغل المصريين كافة ، وموضع تفكيرهم ، والهم المقعد الناصب لهم فى حياتهم المعاصرة .

ولم يترك الخفاجى القرية إلا فى أثناء دراسته ، وظل وفيا لها ولأهلها الأبرياء البسطاء طول حياته .

وهذا الميلاد وما صاحبه وتلاه من أحداث فى حياة الخفاجى يصوره فى قصيدة ساحرة له عنوانها « يوم الميلاد » جاء فيها :

يوم ميلادى حمده صيغ لى اسما   وارتدت فى سناه روحى جسما
ورأيت الوجود طفلا صغيرا   يستطيب الدنيا رضاعاه ونوما
ويحب الحياة مهدا وثيرا   وأبا صاغه الحنان وأما
ونشيدا وأغنيات عذابا   تملأ الغرفة الصغيرة نغما
ومناغاة إخوتى لى فى المهد   وقبلات تشبع المهد لثما
والسماء الزرقاء تسحر عينى   فأحصى النجوم نجما فنجما
وأرى كل ما أشاهد حلما   وأرى صادق الحقيقة وهما

ومنها :

ما أنا ؟ صورة لجد وجد   وكتاب عنهم ينبىء علما

أنا مرآة صورت كل ما طاف ... بوهم الحياة وهما وحلما
أنا أغنية تلحنها البيئة ... رمزا على الحياة ووسما
أنا قيثارة العصور ولحن ... ربما بالحياة زادك فهما
ونشيد فم الخلود يغنيه ... أمانا على الزمان وسلما
بين نجد وفي العراق ومصر ... عاش قومى يأبون ذلا وضيما
ملكوا الملك شيدوا العرش ساسوا ... الناس بالعدل والشجاعة حزما
أنصت التاريخ القديم اليهم ... ولهم طالما أشار وأومى
فزعت بغداد وأتراك بغداد ... لقوم لم يقبلوا قط ظلما
ثم أضحى المجد التليد حطاما ... والجلال القديم أصبح وهما
وعيون التاريخ تهزأ بالدهر ... الوفى الذى تحول خصما
بين أرض الريف الجميلة نشئت ... وشمت الحياة صحوا وغيما
وحملت الاعباء طفلا صغيرا ... وحسمت الامور بالحزم حسما
وبنيت المستقبل الضخم صرحا ... ودعمت البناء وحدى دعما

ومنها :

يا لذكرى الميلاد عودى وعودى ... فالرجاء البعيد بالوصل هما
املأى العيش بهجة وسرورا ... طالما ذقته شجونا وهما
أنطق الدهر ، أسمعى الدهرى لحنى ... والليالى فطالما كن صما
أنا أحيا على الرجاء وأسعى ... لأنال المنى كفاحا ورغما
أنا ما أبتغى يجل عن الوصف ... وجل ما أرتجى أن يسمى
أنا أحيي التاريخ مجدا وجاها ... وأعيد الأيام يوما فيوما

(٨)

إن الخفاجى لم يكن وحدة فى الحياة ، إن تاريخ قومه يمتد إلى أكثر من ألف وخمسمائة عام .

فهو من سلالة عربية عريقة ، أرخ لها فى كتابه « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى » ، والخفاجيون قبيلة عربية حجازية كبيرة نشأت فى العصر الجاهلى وزاد نفوذها ، وهم من العقيليين العامريين القيسيين ، وقد تعددت فروع القبيلة بعد الإسـلام وهاجرت سلالات منها إلى الشام ومصر والعراق والمغرب والأندلس ، ومنهم أعلام خالدون فى كل مكان ، ولا ننسى الشاعر الأموى توبة الخفاجى العربى الحجازى ، والأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى عام ٤٦٦ هـ ، والشهاب الخفاجى المصرى المتوفى عام ١٠٦٩ هـ ، وابن خفاجة الأندلسى الشاعر المشهور ، وسواهم .

ومن الخفاجيين أسر حاكمة فى حلب فى القرن الخامس الهجرى ، وفى العراق فى القرن الرابع إلى السابع الهجرى ، وكانت ولاياتهم فى الناصرية بقرب الكوفة وكان يتولاها منهم بعد أمير ، وكانوا فى شبه استقلال داخلى عن الخلافة العباسية .

إن هذا الماضى العريق يحمله الخفاجى فى قلبه ودمه وأعصابه ويقف مزودا منه بإيمان راسخ ، وعبقرية حادة ، وقوة ضخمة تعاونه على كفاحه فى الحياة ،

وحفظ الخفاجى القرآن الكريم وتعلم مبادىء وأطرافا من الثقافة الأولى فى مكتب القرية أو المدرسة الأولى التى كان يتعلم فيها الشباب فى ريف مصر إلى عهد قريب .

وفى عام ١٩٢٧ رحل إلى مدينة الزقازيق يتلقى ثقافته الإبتدائية والثانوية فى معهدها الكبير ، الذى تخرج منه عام ١٩٣٦ ، وبين هذين التاريخين قصة كفاح طويل ليس هنا فى هذا الكتاب مجال تسجيلها ، إنما موضعه فى كتاب مفصل آخر .

ومن أهم ما ظهر على الخفاجي في هذه الفترة الاتجاه الوطني الذي دفعه إلى الكفاح في سبيل وطنه في الأزمات السياسية التي مرت بمصر منذ عام ١٩٣٤ ، وكان رئيس اتحاد طلبة أبناء الشرقية في مدينة الزقازيق ، وكان هذا الاتحاد قوة كبيرة سياسية في هذه الفترة ، والخفاجي وأصدقاء له هم الذين كونوه ، وكانت مؤتمراته الوطنية تنشر في الصفحة الأولى في جريدة الجهاد المصرية ، وفي شتى الصحف في هذه الفترة .

ومن أهم ما يلاحظه الخفاجي على الثقافة المصرية في هذه الفترة انعدام التوجيه وضعف تربية الملكات ، وإهمال شئون الطالب النفسية والعقلية إهمالا كبيرا . وقد جاهد الخفاجي في أزمة الأزهر عام ١٩٣٥ مع زملائه جهادا طويلا .

والتحق الخفاجي بعد مرحلة الثانوي بكلية اللغة العربية بالقاهرة وهي إحدى كليات الأزهر الشريف وبدأ دراسته فيها في أول أكتوبر عام ١٩٣٦ ، وفي اليوم الثاني من أكتوبر من هذا العام توفي والده ، وبعد ذلك بعشرين عاما أي في يوم الخميس ٢٧ جمادى الثانية ١٣٧٥ هـ — ٩ فبراير ١٩٥٦ توفيت والدته .

وفي خلال هذه الفترة اشترك الخفاجي في الحركة الوطنية ؛ وتابع دراسته ، وعمل أحيانا في الصحافة في جريدة السياسة والدستور ، وفي صحف أخرى ، وكتب المقالات والبحوث والدراسات في شتى الصحف والمجلات .

وكان قيام الحرب العالمية الثانية في هذه الفترة عام ١٩٣٩ أهم حدث عالمي تأثر به الشباب العربي أيما تأثر ، بل تأثر به شباب العالم قاطبة .

وفي هذه الفترة تأثر بآراء عالمين ، ومفكرين كبيرين من رجال الفكر والثقافة والإصلاح ، هما الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر فيما بعد ، والأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة عضو جماعة العلماء بالأزهر .

وكان الأستاذ الأكبر الشيخ حمروش عميد كلية اللغة آنذاك وكان بعقله الواسع

وأفق تفكيره البعيد وثقافته العلمية العريقة أرفع مثال لطلاب كليته ، يستمدون منه القدوة ويحتذون حذوه فى الفهم والتفكير .

وكان الأستاذ الكبير محمد عرفة أستاذا للخفاجى فى الفلسفة والبلاغة ، ومن ثم تأثر بآرائه التجديدية العلمية تأثراً خاصا .

وتخرج الخفاجى فى يوليو عام ١٩٤٠ من كلية اللغة يحمل شهادته العالية .

والتحق بأقسام الدراسات العليا فى كلية اللغة العربية فى أكتوبر عام ١٩٤٠ فى قسم البلاغة والأدب ، فعكف فى خلال الأحداث العالمية التى صاحبت الحرب العظمى ، وفى أحداث مصر القومية التى امتدت من هذا التاريخ ، وفى خلال أزمات الأزهر التى كانت نتيجة للصراع بين الحكومة والقصر والتى كان الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى مظهرا لكثير من صور الحرب الخفية فى هذه المعركة ، فى هذه الظروف عكف الخفاجى على دراساته العليا إلى أن تخرج عام ١٩٤٥ يحمل شهادة النجاح فى الامتحان التمهيدى لشهادة العالمية من درجة أستاذ .

ثم قدم رسالته الجامعية « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد البيان » ونوقش فيها فى أكتوبر عام ١٩٤٦ ، ونال بها بتفوق شهادة العالمية من درجة أستاذ فى الادب والبلاغة من كلية اللغة العربية وهى أرقى شهادات الازهر الجامعية وتعادل الدكتوراه الممتازة حرف (ا) .

ومن الجدير بالذكر أن الخفاجى قدم للكلية مع رسالته المخطوطة ثلاثة كتب له مطبوعة عن ابن المعتز فى جوانب تخدم موضوع رسالته وهذه أول مرة يقدم فيها باحث رسالة علمية مخطوطة ومعها ثلاثة كتب تخدم رسالته وفى موضوعها .

وكان هذا الجهد الأدبى موضع تنويه الأدباء والعلماء والصحف فى حينه .

ولا ننسى أن نقول إن الخفاجى أمضى مع عمله الضخم هذا سنوات طوالا يشغل وظيفة أستاذا فى الليسيه فرانسيه فرع شبرا .

وقد ترك بعد حصوله على شهادة العالمية من درجة أستاذ وظيفته فى الليسيه ليتولى أستاذية البلاغة فى معهد أسيوط الكبير الذى عمل فيه من نوفمبر عام ١٩٤٦ حتى أكتوبر عام ١٩٤٧ ، ثم فى معهد الزقازيق الذى كان طالبا فيه من قبل ، والذى عمل فيه من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٤٨ ،

وانتقل الخفاجى فى ١٧ أغسطس عام ١٩٤٨ إلى كلية اللغة العربية مدرسا للأدب والنقد والبلاغة فيها ، ولايزال حتى اليوم يتولى هذا المنصب فيها .

ومن الطريف أن نذكر أن الخفاجى متزوج من عام ١٩٤٨ وله ولد هو ماجد خفاجى ، وتوفيت له بنت كان اسمها « وفاء خفاجى » .

وهو عضو فى شتى الهيئات العلمية والأدبية فى مصر والعالم .

وله حتى اليوم تسعون كتابا مطبوعا . وهو من أكبر دعاة التجديد والإصلاح والتعاون والاتحاد العربى ، ومن أكبر مقاومى الاستعمار فى محيطه ، ومن أكبر الثائرين على النظم السياسية الجائرة السائدة فى كثير من شعوب العالم العربى المتخلفة عن ركب الحياة والحضارة وعن مبادى الإسلام الكريمة .

(٩)

ومن صور مقالات الخفاجى كلمة كتبها بعنوان « أيام المجد » :

أيام عشتها وكأنى عشت بها الدهر كله . فقد جمعت المجد من أطرافه ، واهتزت بجلالها النفس هزة الفرح والإعجاب .

أيام ويالها من أيام ، لقد حسدت عليها نفسى ، وحسدت الجيل الذى أعيش فيه ، وحسدت وطنى مصر لأن تاريخه احتواها ، ولأن العالم كله قد اهتز إعجابا به وبها .

أيام ويالها من أيام ، فلو قد مت اليوم لما كان قد بقى لى من أمنية فى الحياة أتمناها لى ولوطنى المجيد .

فأولاها : أيام الثورة الوطنية عام ۱۹۱۹ فى مصر ، وقد شاهدتها فى قريتى الخضراء طفلا صغيرا . وشاهدت المظاهرات الوطنية التى كان يقوم بها أهالى القرية وأنا بينهم فى شوارع قريتى الصغيرة وحاراتها . يهتفون للوطن بالحرية والاستقلال ، وللانجليز بالدمار والهلاك ، ويطالبون بحرية الوطن العزيز : مصر وطن الأحرار والمجد والتاريخ ، وكم كان يسعدنى وأنا طفل صغير أن أخرج مع جموع الفلاحين نحمل الهراوات والعصى ونستقبل بها السيارات الوافدة على طريق القرية ، فاذا كان فيها أجانب استوقفناهم وطالبنا منهم أن ينزلوا معنا نحن الثائرين ، ويهتفوا معنا بحرية مصر واستقلالها وسقوط انجلترا والاستعمار .

وثانيتها : أيام ثورة مصر الكبرى فى معركة القنال ، حيث قامت المعركة فى أرض القتال بين قوات البوليس المصرى وجيوش الاحتلال ، وضرب المصريون فيها أروع الأمثال وأجد صفحات البطولة التى وعاها التاريخ ، وعرفها الزمن . وقد انتقم الانجليز لهذه الثورة الوطنية الجليلة الخالدة بأيدى الخونة المصريين فى ذلك الحين ، وعلى رأسهم صاحب العرش فاروق بن فؤاد ، فأحرقوا القاهرة وكبتوا الحريات ، وأعلنوا الأحكام العرفية ، وأقالوا الوزارة الدستورية القائمة آنذاك وصبوا على البلاد سوط عذاب ، ومع ذلك فقد صمدت مصر فى وجه الأحداث صمود الجبال والأبطال .

وثالثها : أيام الثورة المصرية القومية الكبرى ، ثورة التحرر والتحرير فى ۲۳ يوليو ١٩٥٢ ، حيث استيقظت فى صباح هذا اليوم الجميل ، فشاهدت جيش الوطن قد احتل مرافق القاهرة : وأقام حكما جديدا فى البلاد ، قضى على الخونة والفساد والإقطاع وسماسرة الحكم ، وأخذ يصنع البلاد ، ويكون فيها جيشا قويا ، يحمى حرية الوطن واستقلاله .

ورابعتها : أيام معارك الوطن الكبرى فى أواخر أكتوبر ١٩٥٦ ، وأوائل نوفمبر من هذا العام ، حيث تآمرت انجلترا وفرنسا ومعهما عدوتنا إسرائيل التى يحركها الإستعمار كما يشاء ، وغزوا بقواتهم منطقة سينا ، ثم انهالت الطائرات والقنابل تدمر مدن مصر ومنشآتها وفق ما يشاء الأعداء ، وصمدت مصر والمصريون صمود الأبطال .

وقامت المعركة فى بور سعيد ، هذه المعركة الخالدة التى كتب فيها المصريون أروع الصفحات طول عصور تاريخهم المجيد ، والتى سار فيها القتال من شارع إلى شارع ، ومن منزل إلى منزل ، ووقف جيش مصر وشعبها فى بور سعيد يصدون العدوان ، ويقاومون جنود الأمبراطورتين العجوزتين ومعهم جنود اسرائيل من مجرمى الحرب ، ومن الهابطين من الجو ، والصاعدين من البحر . وتتبع الوطن المصرى أنباء القتال أولا بأول ؛ وساعة بساعة ، ووقفوا حول المذياع يسمعون وصف المعركة . وينصتون لأنبائها ، يزدهيهم الفخر والكبرياء والمجد والعظمة لبطولة جيشهم النادرة ، وعظمة الشعب المصرى الكامنة المتوارثة خلال الأحقاب والأجيال ، وكأن مجرمى الحرب إيدن وموليه أرادا أن ينتقما من مصر لتأميمها قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ فرصدوا لها الأساطيل الجيوش والطائرات .

ولكن مجرم الحرب إيدن ، ومجرم الحرب موليه ، ومعهما تابعهما بن غوريون هزموا وانتصرت مصر فى معركة بورسعيد وقاوم المصريون فى أرض المعركة وثبتوا ثبات الجبال ، واحتمى إيدن وموليه بقرار هيئة الأمم المتحدة الذى نص على وجوب وقف القتال فى الساعة الثانية صباح الأربعاء ٧ نوفمبر عام ١٩٥٦ .

وهل أنسى الأسبوع الأول للحرب ، وكانت غارات طائرات الأعداء مستمرة على القاهرة كل دقيقة ، حيث لا يجد أحد متنفسا يأخذ فيه لحظة هادئة متمتعا بنعمة الأمن والتفكير والتحرر من الخوف ، وكنا فى القاهرة نطفىء الأنوار منذ دخول

الليل ، وتتقطع الطرق ، وتتوالى صفارات الانذار كل دقيقة ، ونسمع أزيز المدافع وأصوات القنابل فى كل مكان ، وكانت طائرات العدو تتهاوى كأنها الورق أمام مدافع مصر وبسالة أبنائها . لم نكن نجد دقيقة واحدة نخلو فيها إلى أنفسنا للتفكير أو التأمل أو القراءة أو الاستمتاع بالطعام ، وكانت المعسكرات تنتظم شباب مصر وشيوخها من المتطوعين للدفاع عن وطنهم الأكبر ، وكنا نتساءل بأى حق يبيح مجرما الحرب إيدن ومولييه لأنفسهما حق غزو الشعوب التى خلقها الله حرة طليقة من كل قيد ، وفشل إيدن وفشل مولييه ومعهما بن غوريون ، نعم فشلوا فى تحطيم الروح المعنوية فى شعب مصر أو فى تحطيم المقاومة الشعبية فى وطنى مصر . وانسحب المعتدون من بورسعيد مكرهين فى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٦

أيام كلها مجد وذكريات خالدة ، كتبت فيها مصر صفحات رائعة من المجد ، والمجد لمصر ولشعبها الحر الأبى ، وللعرب الأحرار الميامين .

(١٠)

ومن صور نثر الخفاجى هذه القطعة وهى بعنوان «ياوطنى» .

يا وطنى الخالد : لك المجد ولك أمجد صفحات التاريخ .

يا وطنى ، يامصر يا أم الحضارة . ومهد المدنية ، ومعلمة الشعوب ، لك العزة والثناء ، ولك الحرية والفداء ، ولك العظمة والكبرياء .

يا وطنى : لقد كتبت اليوم أروع أعمال البطولة فى دفاعك المجيد عن بور سعيد ، مما شهد به العالم ، وسجلته الأحداث ، لقد قاتل شعبك المجيد قتال الأبطال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل ، فعلمت البرابرة الغزاة أن أرض مصر حرام على المستعمرين ، وأنها أمنع من العقاب ، مادام شباب مصر وشيوخها حريصين على أن يفتدوها بالمهج والأرواح .

ياوطنى : لقد وقفت خلال عصور التاريخ ضد الغزاة الفاتحين مقاتلا باسلا ،

ومحاربا صلبا ، فطردت الهكسوس والفرس واليونان والرومان من أرضك ، وطردت الصليبيين والتتار من ثراك الطاهر ، وأقمت بسواعد أبنائك حضارات مشرقة ، وامبراطوريات مصرية ضخمة انحنى لهاالتاريخ ، وهتف بذكرها الزمان .

ياوطنى : بيد أحمد ورمسيس ، وبيد عمرو بن العاص وصلاح الدين ، وبيبرس وبرقوق ، وعرابى وجمال : رفعت أعرق لواء ، وأمجد راية ، وأرفع شعار للحرية والمجد والعظمة والجلال والقوة .

يا وطنى : إن الأمبراطورية المصرية فى عهد عمرو بن العاص وخلفائه ، ثم عهد المعز وذريته ، ثم فى عهد صلاح الدين الأيوبى وسلالته ، ثم فى عهد المماليك ، ثم فى القرن التاسع عشر : كانت من أعظم الأعمال فى التاريخ ، وكانت رمزا وعزة ومنارة للإسلام والمسلمين ، وكهفا تأوى اليه الحضارة والثقافة الإسلامية .

يا وطنى الخالد : لقد وقف الإنجليز فى القرنين التاسع عشر والعشرين لنهضتك وحريتك ومجدك بالمرصاد ، فقضوا على الأسطول المصرى فى نافارين ، وقضوا على الجيش المصرى وحرموه ثمرة انتصاراته الحربية العظيمة فى عهد محمد على ، ونهبوا إمبراطورية مصر بسياسة الخداع والتضليل ، ثم صفوا بقاياها فى عهد إسماعيل ، ثم ورثوها فى عهد توفيق بعد الاحتلال ، ولكنهم وشرفك وكفاح أبنائك ونضال شعبك الحر الأبى ان يتمكنوا من هزيمة مصر سياسيا ولا حربيا فى عهد الأحرار .

بمجدك وتاريخك ، وبأبطالك وأبنائك ، وبثورة شعبك الأبى ، وبثراك الطاهر ، سنقاوم الغزاة ، وسننتصر على الغزاة ،والنصر لنا بفضل الله ،وبسواعد شعبنا العريق .

(١١)

ومن صور كتابته الأدبية كذلك ما كتبه بعنوان « شاعر فقدناه » :

فى معركة الوطن الكبرى ، معركة الحرية والاستقلال ،وبين صوت القنابل ، وأزيز الطائرات ، ودوى المدافع ، وضجيج النضال فى بور سعيد ، وحيث مصر كلها تقاتل فى هذه المدينة الخالدة ، أعداء السلام والحرية من لصوص الاستعمار ، ومجرمى الحروب ، ومصاصى دماء الشعوب ، من الانجليز والفرنسيين والإسرائيليين .

وسط كل هذه الأحداث الضخمة الحاسمة فى تاريخ وطننا مات الشاعر المصرى الخالد محمد الأسمر ، بعد كفاح طويل فى الحياة ونضال ضخم عاش فيه طول حياته .

ومن عجب أن يكون ميلاد الشاعر فى اليوم السادس من وفمبر عام ١٩٠٠ م وأن يكون وفاته فى اليوم السادس من نوفمبر أيضا عام ١٩٥٦ الموافق ٣ ربيع الثانى عام ١٣٧٦ هـ ، ولا أنسى أياما حافلة بالذكريات قضيتها مع شاعرنا الأسمر منذ شهرين نتلاق فى الصباح فى مكتبه بمكتبة الأزهر ، ونتلاقى فى المساء فى منزله بروض الفرج بالقاهرة ، ويقص على كلما التقيت به ، والتقى بى ، أطرافا من قصة حياته ، وقصة كفاحه فى الحياة ، ونظراته فى الأدب والشعر والنقد ، ويطلعنى على آثاره الأدبية والفكرية خلال الربع القرن الأخير .

ثم مرض وانقطع عن مكتبه ، وعدته فى المنزل ، فما رأيته متأوها شاكية إلا هذا اليوم ، ثم إدخل مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية للعلاج ، وزرته فى المستشفى مرات عديدة ، وفى أول زيارة كان متشائما أشد التشاؤم ، كان الطبيب قد أنبأه بأن فى كليته بعض حصوات يجب إخراجها ؛ وهذه عملية صغيرة لا تدعو إلى تشاؤم ، ولكن شاعرنا الأسمر كان يحدثنى كمن فقد الأمل فى الشفاء وطمأنته ، وقلت له إن الأمل فى شفائك كبير ، إنه لا شك فيه ، وامتد الحديث ، وأخذ يلقى إلى بعدة وصايا تحملتها أمامه ، وطمأنته ، واستأذنت ، ثم عدت إلى زيارته عدة مرات ، وبعد أمد غير طويل مات الشاعر وهو طريح الفراش فى

المستشفى من أثر العملية التى أجريت له ، وفقدنا بموته الشاعر والإنسان والأخ والصديق جميعا .

كان الأسمر رحمه الله مثال الظرف والأناقة فى زيه وهيئته ، وفى أسلوبه وتعبيره ، وفى حديثه وسمره وفى كل ما يتصل به من شئون الحياة . وكان رائع الالقاء إلى حد يستدعى الإعجاب ، سمعته فى حفلة تكريم المراغى لأول مرة عام ١٩٣٥ ، فى أرض سراى المعرض ، وشاهدت كيف اهتز الجمع الكبير لقصيدته التى ألقاها هزة التقدير والإجلال ، ثم سمعته بعد ذلك كثيرا وفى كل مرة أسمعه أو من بعبقريته وشخصيته الفذة الرائعة الحبيبة إلى قلوبنا .

وقد كتبت عن الاسمر دراسات عديدة نشرت فى كتبي : « مذاهب الأدب » و « الأزهر فى ألف عام » و « مع الشعراء المعاصرين » ، وأشعر أن الأسمر جدير حقا بأن تكتب عنه مئات الدراسات والبحوث .

والأسمر من مواليد مدينة دمياط . وقد حمل جثمانه من القاهرة بعد وفاته ودفن فى هذه المدينة ذات الذكريات الخالدة ، وقد تلقى ثقافته فى الأزهر الشريف وتخرج منه عام ١٩٣٠ ، وعمل فى الصحافة مدة طويلة ، فى السياسة اليومية والأسبوعية وفى الأهرام ، والزمان ، وكان ينشر فيها وفى شتى الصحف والمجلات فصوله فى الأدب والنقد وقصائده الجديدة التى كان ينظمها . كل ذلك بجانب عمله الرسمى فى الأزهر الشريف أمينا عاماً لمكتبته الكبرى . وبجانب عمله فى الإذاعة والهيئات العلمية والأدبية المختلفة . وقـــد اختير الأسمر قبل وفاته بشهور عضواً فى لجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب الذى أنشأته حكومة مصر منذ أمد قريب .

وللأسمر ديوانان مطبوعان هما : تغريدات الصباح ، وديوان الأسمر ، وله ديوان ثالث مخطوط جمعه قبل وفاته وجمع فيه كل شعره الذى نظمه بعد سنة ١٩٥٠ وهو شعر مملوء بكثير من روح الثورة والوطنية ، ويمثل شعره الكفاحي والتقدمى

وهو من أجل ما نظمه شاعرنا الأسمر وللأسمر كتاب آخر هو « مع المجتمع » وهو من النثر الفنى الخالص الرائع .

وكان الأسمر يلقب فى الأهرام «شاعر الأهرام» ، وفى الأزهر « شاعر الأزهر» ، وفى البلاد العربية « شاعر العروبة . وشعره المطبوع سجل رائع لحياتنا الاجتماعية والقومية ولحياة الشرق العربى خلال ربع قرن ، فضلا عن شعره فى ديوانه المخطوط « بين الأعاصير » .

وكان شعر الأسمر ينشر فى البلاد العربية ، ويعكف الناس على قراءته معجبين به . ولا زلت أذكر كيف كان أدباء البلاد العربية فى رسائلهم لى يحملوننى التحية إلى الشاعر الأسمر ، ولا يفكرون أولا إلا فيه ، وفى كل مرة كنت أعتقد أن شهرة الأسمر تغنينى عن أن أبلغه هذه التحية الموصولة المتكررة من أدباء الأمم العربية الشقيقة .

رحمك الله يا شاعر العروبة والإسلام ، بمقدار ما دافعت عن وطنك ودينك وعروبتك ، وأبليت بلاء حسنا فى هذا الدفاع ، ولتنم قرير العين ، موصولا برضاء الله ، ولك ولأدبك الخلود ، وعزاء فيك لأبناء مصر ، وللشعوب العربية المتوثبة إلى المجد والجهاد والكفاح فى سبيل أهدافها وغاياتها فى الحياة .

توفيق الحكيم [1]

بدت القصة العصرية فى بستان الأدب العربى نبتة ضئيلة المظهر ، تحاول جهد مستطاعها أن تشرئب وأن تزدهى . . . نبتة غرسها نفر من ناشئة المدرسة الحديثة ، تسامت نفوسهم إلى إمداد أدبنا المصرى بذلك الفن الطارف من فنون البيان .

وإن من الناس لمن كان يجوس خلال البستان . فاذا لمح هذه النبتة فى إهابها الغض ، لم يزد على أن يوليها ابتسامة استهزاء وسخر . . . وقليل أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تلك النبتة نظرة التفاؤل والاستبشار ، ويقدرون لها فى قابل الأيام مجد النماء والازدهار .

على أن نبتة القصة ما فتئت تتعلق بأسباب البقاء ، مغالبة عثرات الطريق على ضعف واستحياء ، حتى كان يوم شاهد فيه رواد البستان فى أصيص تلك النبتة المستضعفة زهرة فتية نضرة تتيه على فننها الرطيب ، وتروع بمفاتنها الحسان . . . ولم تكن زهرة البستان إلا قصة « أهل الكهف » تحمل اسم « توفيق الحكيم » !

طبع من هذا الكتاب بادىء بدء مائة نسخة ، فى معرض أنيق ، من طبع جميل ، على ورق فاخر ، وعرضت للبيع عشرات من هذه المائة غالية المهر . . .

وتساءلت جمهرة من الناس ، وهم يمطون شفاههم فى عجب : «أهل الكهف» . وهل هى إلا أسطورة أكل الدهر عليها وشرب ؟ ففيهم يبعث اليوم رفاتها فى هذا الكفن المزوق ، خدعة للأعين ، وتزويرا على الافهام و « توفيق الحكيم » . . . لمن يكون هذا الاسم ؟ إنه ليس له فى نوادى الأدب صوت ، ولم يسبق له فى الصحف ذكر ، وما ذاع له فى معبد الفكر قربان ! أترى الرجل أراد بكتابه أن

---

(١) بقلم : محمود تيمور .

يزود أبهاء الضيافة وقاعات الاستقبال فى بيوت السراة بتحفة من تلك التحف التى تتناثر على المناضد ، تلهية للأنظار ، فى فترات الانتظار ؟ ولكن الكتاب استن طريقه إلى طائفة من أعلام الأدب والرفيع ، فراعتهم منه جدة فى الموضوع ، وعمق فى التفكير ، وقدرة على معالجة التأليف القصصى فى نطاق إنسانى المنزع يساير نهج الأدب الحى فى العالم المتحضر وما أسرع أن تهادى قادة الفكر هذا النبأ السعيد : مولد ضوء جديد ! وتهافت القراء ينشدون الكتاب ، فلم تسعفهم به السوق . . .

وطلع على الناس عميد الأدب العربى « طه حسين » هاتفا « بأهل الكهف » مشيدا بتلك الوثبة الكبرى فى ميدان القصة الفنية ، فأثار هتفه العميم تطلع القوم فتتابعوا ينفضون الأسواق سائلين أين الكتاب ؟ وكان صاحب « أهل الكهف » فى مرقبته ، على حذر واهتياج ، طاويا جناحه على النسخة الباقية من الكتاب ، ينظر إلى ذلك كله بتينك العينين النفاذتين يسطع منهما البريق . ولما اطمأن إلى الأمر كل الاطمئنان ، واستوثق لنفسه كل الاستيثاق ، خرج من مرقبته يزجى الطبعة الثانية من كتابه إلى معشر القراء ، فاذا هم يتخاطفون نسخه ، فلم يكن بد من أن يطبع الكتاب طبعة ثالثة ، حتى ما بقى أحد من صفوة المثقفين إلا قرأ « أهل الكهف » فعرف « توفيق الحكيم » ! وكذلك كان لخروج «أهل الكهف» روعة المفاجأة ، وإنها لخصلة فى « توفيق الحكيم » أن يرتب ويدبر فى سر ، وأن يعمل جاهدا فى صمت ، حتى إذا أوفى على الغاية من عمله تجلى به على الناس يثير فيهم الدهشة ، ولكن صاحبنا الألمعى يريد نفسه على أن يخلو إلى قدور طعامه بنجوة من أعين الناس ، فلا يظهر للملا إلا وقد أعد مائدته ناضجة الألوان ، موفورة الحظ من التطلع والتشوف ، ويستهوى نفوسهم فى إكبار وإعجاب . . . ليس صاحبنا كمثل ذلك الذى يطهو ألوان طعامه بمرأى من الغادين والرائحين ، فهم يتنسمون شذا الطعام حالا بعد حال ، ويتعرفون مذاقه على مراتب نضجه طيبا وغير طيب . من سبك وحبك ، ومن تنسيق وتنميق . . .

تواردت كتب « الحكيم » يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولكنها متباينة الأنواع ، متجددة السمات ، لكل كتاب مذاق ، وعلى كل كتاب طابع ، فلا تكرار ولا إعادة ، ومن ثم لا تزهيد ولا إملال . كتب الرجل القصة على تخالف نطاقها طويلة وقصيرة ، وعلى تعدد نوعها تمثيلية وغير تمثيلية ، ودون المذكرات واليوميات ، ودبج الفصول فى نقد الحياة والمجتمع ، وأرسل رسالة فى الأدب الحديث ، وتحدث عن أسرار النفس وحقائق الوجود ، فكان فى كل ما جرى به قلمه مصطبغا بصبغة وضاحة ، هى صبغة « الفكر » فى سبره لأغوار الحياة ، وفى توجيهه لتيار الرأى ، وفى تحليله لأحداث العيش ، وتعليله لتصاريف الناس .

فيما بين أعوام قلال ، تجمع إنتاج « الحكيم » فكان ضخما ، ولا غرو أن يتيسر ذلك لرجل شب موهوبا للأدب ، منهوما بالتزود من الثقافة .

احتوته « باريس » سنين من زهرة عمره ، فورد فيها مناهـــل الفنون يكرع المسارح تشغل لياليه ، والمحافل الموسيقية تتجاذبه ، وأشعة المعرفة فى مدينة النور تضىء له الطريق أنى حل !

احتوته « باريس » سنين من زهرة عمره ، فورد فيها مناهل الفنون ، المسارح تشغل لياليه ، والمحافل الموسيقية تتجاذبه ، وأشعة المعرفة فى مدينة النور تضىء له الطريق أنى حل ! ولكأن هذه الحقبة من حياة « توفيق الحكيم » فترة التأهب والاستعداد ، ومهلة التدبير والاختطاط ، وفاتحة التمرس بالكتابة والتسجيل .

ولعل ما مزقه « الحكيم » فى هاته الحقبة مما كتبه أكثر مما أبقى عليه ، مستريبا بما صنع ، يائسا ممن يقرأ ، ضنينا بهذا الجهد أن يذهب سدى ، غير بالغ بصاحبه مأربه .

ولكنه لم يكن يملك إلا أن يكتب وأن يسجل ، وإن محا فى غده ما فرغ منه فى أمسه ، فقد كان محدوا على أن يكون من أصحاب الأقلام وجماعة الكتاب

بقوة خافية ماضية ، كأنها القضاء فى خفائه ومضائه ! كان مكتوبا على « الحكيم » أن يبلغ رسالة فى الأدب الحديث ، فسيق إلى أدائها غير مخير ، ولو لم يكن راضيا بأن يؤديها لفعل على كره . ما كاد « الحكيم » يؤوب من سفره ، ويحل فى وطنه ، بين قومه ، حتى دأب على الكتابة والتأليف ، لا يعتاقه منصب من من المناصب ، ولا تستأنى به مشغلة من مشاغل العيش . . . فطوى مع الأعوام مؤلفات مخطوطة ظلت فى خدورها رهينة الأدراج لا تنالها العيون ، فإذا خلا إليها فى محبسها لبث يناجيها ويسائلها :

وقد أخضعت أعمال توفيق الحكيم فى التأليف والقراءة هذا العملاق لسلطانها كل إخضاع ، فعصفت فى ثورتها بما له من وظيفة حكومية وعمل رسمى إلى أن كان أخيرا « مديرا لدار الكتب المصرية .

«الإسكندرية» داره ، فيها نشأ ، وعلى شاطىء بحرها درج . من «الإسكندرية» ورث خصال أهل الثغر : عزة واعتداد ، وهمة للسعى ، وإقبال على الغنم والاكتساب

انظر إليه فى مشيته ، وقد بدأ مشرئبا ، ناهض الصدر ، مترنح الأعطاف حثيث الخطو ، كأنه أبدا معجل يخشى فوات وقته المقسوم لإنجاز عمله . يده تقبض على عصاه ، لا متوكئا عليها ، ولكنه يتخذها رمزا لمظهر القوة فيها . . .

وعصا « الحكيم » تقول لك : إن ما يبديه صاحبى من فتوة وقوة ، ليس إلا وسيلة يستتر بها خلة الخشية والتحوط والحذار . وقد طبعت نفس صاحبى على أن يحذر ويتحوط ويخشى ، وقد نجلته مدينة البحر ، حيث الجو قلب ، وحيث الحياة تحدو على مغامرة وتطير . . . ، وإذا كانت المرأة نصف الإنسان على وجه عام ، فهى نصف « توفيق الحكيم » على وجه خاص . . . وبرهان ذلك حبه التقليدى لها ، أعنى عداوته إياها ! . يؤمن « الحكيم » بقوة المرأة ، ويعرف لها سطوتها

ومن ثم يخشاها ويحذرها ويتحوط منها ، أو قل إنه يتطير بها ، اتقاء لما لها من فتنة وهيمنة وسلطان .

تخطىء الخطأ كله إذا لم تفسر تهوين « الحكيم » من شأن المرأة وإزرائه بها وتهجمه عليها بأن ذلك ليس إلا دفاعا منه عن نفسه ، وإلا تظاهرا بالقوة والغلبة لكى يعالج بذلك حفظ التوازن بين المرأة وبينه ، وبث الطمأنينة من جانبها فى قلبه ، حتى يكون ذلك سبيلا إلى إخضاعها والظفر بها فى يسر وأمان ! على أن « شهرزاد » فى فطنتها الأصيلة لا يفوتها سر « توفيق الحكيم » . . . فهى مزهوة بأن يكون ذلك الفنان العبقرى مشغولا بمهاجمتها ، طاربا فى إهابه شخصية العدو الحبيب .

حياتى (١)

تأثرت بكثير من أعلام المسرح الأوربى الحديث والقديم ، ومن بينهم بدون شك مترلنك وبيراندللو . ولكن من مجافاة الحقيقة أن أزعم أن الأمر اقتصر عليهما وحدهما فان من بين المؤلفين من احتل من فكرى واهتمامى أكبر مكان . وأخص بالذكر إبسن وموليير ، وهو وإن لم تظهر آثاره فى أعمالى الفنية واضحة لتغلب الناحية الفكرية والروحية عندى فى بعض المسرحيات ، إلا أنه فى الجانب الاجتماعى أو الواقعى يظهر أثر انتفاعى بدروس موليير . هذا عدا الاهتمام الطبيعى بأعمال الإغريق ومنهم سوفوكل وأرستوفان وأعمال شكسبير مما لا يمكن لكاتب مسرحى أن يمسك بالقلم قبل الحياة فى كنفهم وقتا طويلا .

والمسرح المصرى لم يكن موجودا على الإطلاق منذ ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة أو يزيد ، ومع ذلك كان فى مصر نهضة مسرحية من أعجب النهضات ، وكانت تمثل على المسرح المصرى لا فى القاهرة فقط ، بل فى العواصم الكبرى وفى أنحاء الأقاليم روايات مثل هاملت وروميو وجولييت وتليماك والبخيل وأوديب الملك وغيرها من روائع الآثار العالمية . وكان الجمهور يتهافت على هذه الروايات وهى تمثل باللغة الفصحى وهى تحوى من الأفكار ما يرتفع عن مستواه الثقافى . ولم يكن هذا الجمهور فى ذلك الوقت قد تغلغلت فيه وسائل التعليم أو محو الأمية أو أدوات الثقافة العامة من إذاعة وغيرها .

هذا الجمهور الذى كان يدفع نقوده لتشجيع المسرحيات العالمية أين هو اليوم مع ما نزعمه من تقدم الثقافة فى عصرنا الحاضر ؟ فالمشكلة إذن ليست مشكلة مؤلف مصرى ، لأن المؤلف الجيد يستطيع أن يعيش فى كل مكان . وإن أعظم المسرحيات إيراداً ونجاحا فى فرنسا اليوم نجد أغلب المؤلفين فيها غير فرنسيين أى من الأمريكان أو الإنجليز أو حتى الأسبان ،

---

(١) بقلم : توفيق الحكيم من حديث له مع مجلة أدبيـة .

كما أن من أنجح روايات المسرح الإنجليزى اليوم روايات المؤلفين فرنسيين ، كما أن أمريكا تعرض بأكبر نجاح روايات فرنسية ، وهكذا نجد أن المسرح إذا وجد فإنه لا يشترط أن يقوم على مؤلفين وطنيين . فالقول إذن بأن مشكلة المسرح هى فى انعدام المؤلف المصرى غير صحيح . فلنبحث إذن عن المشكلة فى غير هذه الناحية وأترك للقراء استنتاج ما يشاءون . أما اقتراحى لإصلاح حال المسرح المصرى فهو يتلخص فى مداواة هذا الانحراف العجيب الذى حدث له ، ولا يمكن بسهولة تتبع أسبابه أو تحديد التبعة فيه . كل ما يمكن أن يقال هو أن الجمهور المصرى الذى كان يشاهد الروائع العالية بسرور وإقبال أصبح اليوم لا يقبل على هذا النوع إقباله على السهل الغث الضحل التافه اللفظى مما يؤثر فى أعصابه بالبكاء الشديد أو الضحك العصبى والحل عندى هو أن نمرن الجمهور من جديد على هضم الآثار العظيمة التى سبق له — ويالسخرية القدر — أن هضمها بالأمس عند ما كان ضعيف الثقافة . وهذا التحول لا يمكن أن يكون إلا فى حدود ضيقة ؛ أى أن نبدأ بتكوين جمهور محدود من المثقفين يؤازر النوع الراقى من المسرحيات بصرف النظر عن منبعها ، أى سواء كانت مترجمة أو مؤلفة ، وسينهض المسرح بهذا الجمهور المثقف المحدود الذى يتحمس لهذا الفن الحقيقى تحمساً مدوياً سواء بالكتابة عنه أو بتحليله أو بالدعاية له والتبشير به إلى أن تنتقل العدوى إلى محيط أكبر ثم أكبر حتى يشمل ذلك الجمهور الواسع شيئاً فشيئاً . وبهذا نعود بالجمهور إلى سابق ذوقه المرتفع .

ويلاحظ اليوم إقبال الشباب على كتابة القصة القصيرة دون المسرحية أو الرواية الطويلة .

ولعل السبب الحقيقى أو التعليل الأقرب إلى الصحة فى نظرى هو ليس كما قد يظن البعض بالنظرة العابرة من أن ذلك راجع إلى استسهال هذا النوع أو إلى قلة البراعة الفنية فيه ؟ ذلك أن الأقصوصة الجيدة أو القصة القصيرة الرائعة قد تكون أخلد على الدهر من قصة طويلة عادية . والسبب عملى محض ، بمعنى أن كاتب القصة

القصيرة يستطيع فى الحال أن يجد ثمرة عمله محققة النشر والذيوع ، فهو بمجرد كتابتها يستطيع أن ينشرها فى هذه المجلات والصحف الموجودة فى كل مكان ، فى حين أن صاحب القصة الطويلة أو المسرحية لا يتهيأ له ذلك إلا بالنشر فى كتاب أو إيجاد مسرح يقبله . ووجود الناشر والمسرح للكتاب أو المسرحيين فى مصر اليوم أمر شاق على الكثير من الكتاب والمؤلفين . فى حين أن الجرائد والصحف التى تنشر الأقاصيص ترحب بأكثر من يتقدم إليها . والفنان بطبعه ميال إلى رؤية عمله مذاعاً فى الناس . ولذلك كان أكثر مؤلفى القصة الطويلة ينتجون فى حالة من اليأس غير ضامنين وجود دار النشر التى تقبل طبع مؤلفاتهم الطويلة . وثق أنه لو كان هذا الجانب العملى متوفراً فى مصر وضمن كل كاتب لعمل طويل سرعة النشر ويسر الجزاء لتحول أكثرهم إلى هذه الناحية . والدليل على ذلك أنك قلما تجد كاتب قصة قصيرة بما تجمع فى كتاب انتظر حتى تجمع لديه العشرة أو العشرون قصة التى يضمها كتابه ، بل إنه فى الغالب إن لم يكن فى كل الأحوال ، يكون قد نشرها متفرقة فى الصحف قبل أن تجمع . فالمسألة إذن مسألة صعوبة النشر وسهولته فى مصر .

وفى حياتنا العصرية الحديثة وثقافتنا ، لا يستطيع إنسان له صلة وثيقة بالثقافة والفكر أن يعيش على عدد معين من الكتب كما كان يحدث فى العصور القديمة ، فإن تنوع ألوان الثقافة ودخول بعضها فى بعض واشتباك نظريات العلم بنظريات الأدب والفن ، واتساع محيط التفكير وشموله لمختلف النواحى من سياسية واقتصادية واجتماعية وفنية يجعل الأديب المثقف فى عصرنا الحاضر محتاجاً إلى الاطلاع فى مختلف الكتب والنواحى . لذلك لا أستطيع أن أنتخب عدداً بالذات من الكتب كما يتعذر على إجراء عملية الاختيار بين القديم مما يجب أخذه أو طرحه أو العناية به أو إهماله ، لذلك أفضل فى هذه الحالة أن أذهب بمفردى إلى الأماكن التى أقوم برحلات فيها وأن أفكر لنفسى بنفسى فى هدوء الكون وفى كل تجاريب الحياة السابقة ومطالعاتى العابرة وكل أسرار الوجود ، كما تظهر من خلال تجاريب الحياة الجديدة .

والفنان الحق هو كائن حر يقدس الحرية ، وأن أساس فكره وعمله هو الحرية ، وإن كل قيد يقف أمام الفنان ويحول بينه وبين حرية التعبير وصحة الإداء يجب أن يحطمه دون أن يحفل بشيء أو أحد . فإذا شعر فنان بأن تعبيره لن يكون كاملا ولا نابضا ولا حياً ، وأن اداءه لن يكون سليما ولا كاملا إلا باستعمال أسلوب من الأساليب ، فإنه يتحتم عليه ان يستخدم هذا الأسلوب . فالمهم فى الفن حياته وكماله . والفنان مطلق الحرية بسليقته الفنية التى قلما تخطىء فى أن يعرف أى الأساليب توصله إلى غايته ، وجريمة الفنان ليست أحياناً فى جهله بالوسيلة ولكن فى علمه بها واجتنابها خشية من نقد ناقد أو عتب عاتب .

ولنطبق هذا الكلام على القصص المصرى فأقول إن هنالك من القصص ما يشعر الفنان بأن الحوار الذى يجرى بين الأشخاص لن يعبر عن حقيقة اخلاقهم ومكانهم من المجتمع ودرجتهم من الثقافة ووضعهم من المعتقدات والمشاعر ، إلا إذا جعلهم ينطقون بلغتهم هو . فإذا كانوا يتكلمون العامية فيجب ان يجعلهم يتحاورون بالعامية . .

الدكتور هيكل (١)

ذلك الرجل الذى زف إلى الأدب العربى باكورة القصص المصرى .

وما قصة «زينب» بسر ! نحن الناشئة الذين كانوا يتطلعون يومئذ إلى لون من الكتابة يصف الحياة المصرية ، ويترجم عن نفسيتها ، لم نكد نتلقف قصة «زينب» حتى نصبناها قبلة نحوطها بالتجلة والاكبار ، ونستهديها سنن الطريق . فلا غرو أن يكون صاحب «زينب» مهوى الافئدة ، ومطمح الأنظار ! .

استهل «الدكتور هيكل» نشاطه محاميا ، ولعلة ضاق ذرعا بتلك المحاماة الفردية التى تطالب بالحقوق الخاصة ، وتعالج ما بين الناس من خصومة ونزاع ، فسمت همته إلى المحاماة العامة التى تضطلع بالقضايا الاجتماعية الشاملة ، وتنشد حقوق الشعب أجمع . ولذلك انطلق فى هذا الميدان الرحيب . فظلت شخصية المصلح الاجتماعى هى الشخصية التى تطبع نشاط «الدكتور هيكل» منذ بزوغه وإن هذه الشخصية لتلازمه فى مراحل حياته وجوانب عمله ، يأنسها الناس فيه أديبا ومفكرا وسياسيا وزعيم حزب ورجل دولة .

شعلة متقدة من النداء بالاصلاح ، ورغبة عارمة فى التحضر والنهوض ، لا تدع وسيلة من الوسائل إلا ابتغتها لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف .

لا يكاد يسترده وطنه بعد رحلته فى سبيل العلم الجديد ، وارتوائه من الأدب الأجنبى ، حتى يتلفت حوله ، ليرى : أين اللون القصصى فى أدبنا العربى ؟ فلا يجد إلا تلك القوالب الجامدة التى علاها الصدا وأخلقها الزمن ، فينبعث مقدما

---

(١) بقلم : محمود تيمور وقد توفى الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله فى ١٩٥٦/١٢/٩ .

ذلك المثال الطريف من القصة العصرية ، كأنه يقول : «اليكم جهد الابتكار ، وثمرة الابتداع ، فليكن شقا للطريق ، وبذرة للفن المنشود !» .

ويروعه ما يرى من تخلف البلاد فى المجالات الحيوية من تعليم واقتصاد ، فيشرع قلمه معليا كلمة الاصلاح ، داعيا إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة ، ولكن بصيرته النيرة تهديه إلى أنه لا سبيل إلى نهضة ما كانت الأمة راسفة فى أصفاد التبعية والاستعمار ، وأن أمة لاتلى أمرها بنفسها ، ولا تملك قيادها ، عزيز عليها أن تستكمل وسائل التقدم والارتقاء .

وإذن يجب أن يعالج الداء فى مكمنه ، وأن تجتث العلة من جذورها ، فهيهات أن يتحقق للبلاد نهوض وتجديد إلا إن تغير نظام الحكم ، والقيت مقاليد الأمور إلى أهل البلاد . فحق على المصلح أولا أن يقتحم ميدان السياسية ، ويجاهد ابتغاء الحرية ، ويدعو إلى تحطيم الأغلال وكسب الاستقلال .

وكذلك ألفينا «الدكتور هيكل» كاتبا وطنيا يسدد قلمه فى المعترك السياسى وما أسرع أن تجلت شخصيته فى الميدان ، وصادفت مواهبه تربة خصبة تنمو فيها وتترعرع . فما كاد يقوم «حزب الأحرار الدستوريين» حتى رأينا الحزب يصطفى «الدكتور هيكل» لسانا ينطق باسمه ، ويعبر عن منازعه ، فى صحيفته السيارة «السياسة اليومية» .

وكان الوقت عصيبا ، تغلى فيه العواطف الوطنية ، وتفضى بالزعماء إلى الفرقةوالشقاق ، وتؤجج بينهم دواعى التنافس والنزاع . فكان اختيار «الأحرار» له فى هذا الموقف الدقيق برهان ثقتهم به وتقديرهم لكفايته وتعويلهم على نصرته ، وإنها لمهمة ثقيلة ألقيت على كاهله ، بيد أنه لم يعى بها ، فسار بجريدة «السياسة» على نهج صحفى غير مسبوق ، ورسم للصحافة اليومية فى «مصر» مثالا يضارع الأمثلة الكريمة للصحف السيارة فى العصر الحديث .

وفى هذا المنبر اليومى سنحت «للدكتور هيكل» فرص الإفضاء بما تنطوى

عليه جوانحه من رسالات البعث فى شتى جوانب المجتمع المصرى ، فطالعتنا « السياسة » أول مرة بصفحات أسبوعية منوعة موقوفة على الدرس والبحث فى العلوم والآداب والفنون . وانفسح صدر «السياسة» لحملة الأقلام من زعماء الفكر ، يجولون ما طاب لهم أن يجولوا فى حرية وانطلاق .

وما انقضت أعوام معدودات حتى أحس «الدكتور هيكل» أن رسالة البحث الأدبى والاجتماعى يضيق عنها النطاق المحدود من الصحيفة اليومية ، وأن كثيرا من الأقلام يتطلب مجالا أكثر سعة ، فأنشأ «السياسة الأسبوعية» للوفاء بهذا الغرض ! ولعله بذلك الصنيع قد شفى نفسه وأرضى ضميره ، إذ أفرد للعلم والأدب مثابة لاتشوبها شوائب الحزبية السياسية من تشاحن وعراك . فهفا اليها كل قارىء مهما يكن متجهه السياسى ولونه الحزبى .

تلاقت فى جنبات « السياسة الأسبوعية » قرائح الصفوة من أعيان الأدباء والكتاب والمفكرين وأصحاب الفنون ، فكانت مجمعا ثقافيا يموج بالدراسات والمباحث ، ويجلو روائع تمثل طابع الفكر الجديد .

وإن المخضرمين من الأدباء ليذكرون أن صحيفة «السفور» تجلت فيها طلائع النزعات الحديثة فى الأدب والفن ، وعلى انقاضها علا صرح «السياسة الأسبوعية» فرأينا كتاب «السفور» الذين لمعت أسماؤهم فيها يعاودون نشاطهم من هذا المنبر العتيد .

خرجت «السياسة الأسبوعية» بمباحثها ودراساتها كأنما هى جامعة تضم مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد . ولعلها كانت وليدة الضرورات والملابسات الاجتماعية فى تلك الحقبة من الزمن ، اذ كانت الجامعة الحكومية لما تزل فى مهدها ، طلابها نفر قليلون ، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأدب ، فكان على «السياسة الأسبوعية» أن تروى ظمأ الجمهور الراغب فى التثقيف والتنوير .

ضرب «الدكتور هيكل» فى غمار الحياة السياسية ، فعجمت عوده ، وأورثته تجربة وحنكة ، وبصرته بالحياة الاجتماعية ومالها من حقائق ودقائق ، فلم يظل ذلك الشاب الطرى العود ، العائد من عواصم الحضارة ، الثائر على التقاليد وأوضاع المجتمع . وأحسسنا بوادر ذلك التطور فيما يجرى به قلمه من آراء وتوجيهات عليها لوائح من الاتزان والاتئاد ، تتجافى رويدا عن تلك الهبات الثورية والفورات الجوامح فى الدعوة إلى الهدم والانتقاض . ومن ثم اكتسبت رسالته الإصلاحية مرونة وطواعية ، واتخذت لونا من اللباقة والمسالمة .

على أن «الدكتور هيكل» لم تصرفه تلك الفريضة الموصولة من المقالة السياسية الرئيسية عن ولعه المكين بالأدب ، ونزعته الأصيلة إلى حياة الفكر ، فكان يضن بوقت فراغه ، لايبذله فى لهو أو دعة ، وانما يعمره بتلك الفصول البارعة فى الموضوعات الأدبية على اختلاف مناحيها ، فاجتمع له من ذلك الثمر مؤلفاته : « فى أوقات الفراغ » و «تراجم مصرية وغربية » و «جان جاك روسو» و «ولدى» و «عشرة أيام فى السودان» و «ثورة الأدب» .

وعلى جميع هذه الكتب يغلب طابع واحد ، ومرمى متميز ، هو الجانب الاجتماعى ، فهو يسجل «فى أوقات الفراغ» اصداء خواطره فى الحياة ، وهو فى «ولدى» يخط فلسفة عميقة مناطها جوهر النفس وحقيقة الوجود ، ولا يترك زورة السودان دون أن يقيد فيها تلك الملاحظات البصيرة للحياة الاجتماعية هنالك .

ولعل كتابيه « التراجم » و «جان جاك روسو » يكشفان لنا بواكير نزوعه وتطلعه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الحافلة بعظائم الأمجاد . فلما نمت تلك النزعة أثمرت فيما بعد أسفاره القيمة فى سيرة رجالات الإسلام ، وما عنايته بأولئك الأبطال إلا إبراز لهدفه الأكبر فى الإصلاح الاجتماعى فإن الكشف عن جوانب هذه الشخصيات ومناهجها فى بناء الأمة وممارسة الحياة ، جدير أن يهدى الناس فيبصرهم بأسباب القوة ، والعزة ويجنبهم عوامل الضعة والاضمحلال .

وبينما كان «الدكتور هيكل» يتسنم مكانه من «السياسة» جازت البلاد بعهد الانقلاب الدستورى ، فشاعت فى المجتمع المصرى صنوف الضغط والاضطهاد ، فطوحت فيما طوحت بجريدة «السياسة» وكان نصيب «الدكتور هيكل» من فوائد هذه المصائب أن انزاحت عنه ضريبة المقالة الرئيسية فى الصحيفة اليومية ، واستقر فى بيته يعب من مطالعاته ، فكان مما قرأه آنئذ كتاب «در منغم» فى «حياة محمد» ، وما عتم أن استهواه ذلك التأليف ، فشرع يعرف به ويعلق عليه فيما بقى له من الحطام الصحفى ، أعنى «السياسة الأسبوعية» .

وألفى « الدكتور هيكل » نفسه منساقا إلى دراسة النبى ، كأنما عز عليه أن يسبق كاتب أجنبى إلى ذلك النمط الحديث من دراسة التاريخ الإسلامى ، كاتب أجنبى تعوزه أصالة المراجع وقرب المستقى ، وتواصل الأنساب والمشاعر ، فنهض هو يؤلف كتابه « حياة محمد » الذى يعد فتحا جديدا فى التراجم العربية ولاغرو أن يطير لهذا الكتاب صيت ، وأن يكون لذلك أثره فى أنفس الكتاب العرب ، فاذا هم يسترسلون فى تناول التاريخ الإسلامى ممثلا فى حياة أبطاله ، ويتفننون فى التأليف على ألفاظ مستحدثة لم تكن تمسها الأقلام . فعمرت المكتبة العربية بنخبة طيبة من جديد التصانيف فى هذا الباب .

ربما كان من البواعث التى أغرت « الدكتور هيكل » بوضع كتابه انه وجد « در منغم » على فضله وجهده لم يوف الموضوع حقه ، وان النبى لم ينصف فى كثير من كتب الأجانب على وجه عام ، بل لقد أثيرت حوله شبه تغض منه لايقرها حق . فانبرى فى كتابه يدفع تلك الشبه ، وينصب الميزان بالقسط لتلك الحياة الفريدة فى عصور التاريخ .

وأذن مؤذن الحج ، فأحس « الدكتور هيكل » شعورا غلابا يحضه على اجتلاء معالم الذكريات . ومواطن الأحداث التى حلق فيها فكره أثناء تأليفه « حياة محمد » . فاستجاب لهواتف نفسه ، وانخرط فى غمار الحجيج يؤدى

المناسك ، ويتملى فى نشوة وشغف تلك المشاهد المقدسة ، متنسما عبق التاريخ الإسلامى فى انبلاج صبحه ، وانبثاق دولته .

وجاشت فى قرارة نفسه روح الفنان . فما أن آب من حجته حتى انثنى قلمه يترجم ما انطبع فى سريرته من مشاهد ومشاعر ، فاتسقت له تلك الفصول التى ضمنها كتابه (منزل الوحى) تشيع فيها حرارة الوجدان ، ويتجلى صدق التعبير .

ومضى « الدكتور هيكل » فى هذه السبيل . صادق العزم يجلو التاريخ الإسلامى محببا إلى العقلية الحديثة ، مرضيا عنه من المناهج المعتبرة فى البحث والدرس والتحليل ، فأخرج كتابيه ، « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » .

وقارىء هذه الترجمات التاريخية يرى « الدكتور هيكل » فيها كأنما يرضى ميله النفسى إلى الحياة السياسية ، فهو فى هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية أمام جملة من الأحداث الفاصلة ، يكثر فيها القواد والزعماء ، وتتناوح الآراء والأهواء ، وتتنازع الفرق والأحزاب ، فالمجال بين يديه خصب للموازنة والمعارضة والترجيح . ومن ثم يتابع فى هذه الآفاق التاريخية حياته السياسية ، ويمارس تجاربه فى تقليب وجهات النظر ودراسة الخطط ونقد الحكومات والحكام !.

هيأت الاقدار « الدكتور هيكل » أن يكون رجل دولة : وزيرا فى وزارات شتى ، وزعيم حزب سياسى ، ورئيس مجلس برلمانى . وقد تقلب فى هذه المناصب ، فما أحالت خلقه ، ولا طغت على روحه ، ولا طوعته لنظام مفروض وطابع مرسوم . فهو فى جميع تلك المناصب يظلها بشخصيته ، فيسبغ عليها مايريد من توجيه وإذكاء . ولم يستطع واحد من مناصبه التى تسنمها أن يطويه تحت جناحه ، أو أن يملك قياده . . . ذلك لأن « للدكتور هيكل » فلسفة خاصة فى ممارسة الزعامة ومزاولة الحكم . فعقليته الحرة الطليقة لا صبر لها على أن تتقيد ببرنامج تخطه ، ومنهج ترسمه ، بل انها روح تسرى فى جوانب الأعمال فتبعث فيها اليقظة ، وتنفى عنها العوائق وتيسر لها وسائل الإنجاز .

الاتحاد الثقافى بين الأمم العربية (١)

إن وحـدة الثقافة مسألة أساسية فى حياة أية أمة من الأمم ، فتوحيد الثقافة بين الشعوب المختلفة هو الذى يؤدى إلى ارتباطها بأوثق الروابط . قد يـكون من الرجم بالغيب أن نتكهن بما سيكون من هذه الروابط فى المستقبل . لـكن توحيد الثقافة هو الواجب الأول إذا أريد لهذا المستقبل أن يثمر الخير لهذه الشعوب جميعا .

ولست أقصد بتوحيد الثقافة أن توحد برامج التعليم وأن توحد الـكتب التى توضع بين أيدى المتعلمين . فالتوحيد الذى يصل إلى هـذا الحد أغلب أمره أن يصل إلى الجمود وأن يقضى على التنافس الثقافى والعلمى تنافسا لا بد منه لاذكاء الحياه المعنوية فى نفس هذه الشعوب .

وإنما أقصد بتوحيد الثقافة توحيد الأساس الذى تقوم عليه ، والغرض الذى تتجه اليه ، على أن يـكون هذا الأساس وهذا الغرض مما يساير حياة العالم الثقافية بصور عامة .

فليس من المستطاع فى زمامنا هذا أن ينسى الناس ما يدور حولهم من أحداث الحياة ومن طرائق التفـكير ، وأن تظن أمة أنهـا تستطيع أن تعيش فى برج من العاج بمعزل عن غيرها من الأمم ، وإذا كان ذلك قد تعذر فى الماضى حتى لقـد رأى العرب فى وثبتهم الـكبرى التى أعقبت ظهور الإسلام أن يأخذوا من علم فارس وأدبها وفنها بنصيب ، ومن علم الروم وأدبهـا وفنها بنصيب ، فالظن اليوم بأننا

---

(١) بقلم الدكتور محمد حسين هيكل وقد توفى رحمه الله يوم الأحد ٩ ديسمبر عام ١٩٥٦

نستطيع أن نتجاهل طرائق العلم الحديث وما تودى اليه فى عالم الاقتصاد والاجتماع لن يعدو أوهام الأطفال . وكيف لإنسان أن يظن اليوم مثل هذا الظن ولم يصبح فى العالم شرق وغرب بعد أن أصبح الشرق والغرب وثيق الاتصال عن طريق الطباعة وعن طريق الإذاعة .

فاذا أنا قلت بتوحيد الثقافة بين الأقطار العربية ، فانما أقصد إلى أن تستمد هذه الأمم وحى ثقافتها فى الأدب والفن وفى غيرهما من مظاهر الحياة المعنوية من ماضيها ، وأن يكون لثقافتها بذلك طابع خاص يميزها عن غيرها .

إذا وحدت أمم العربية ثقافتها على هذا الأساس وجعلت وجهتها إلى هذا الغرض واتخذت الطرائق الحديثة فى البحث سبيلها الى هذا التوحيد ، استطاعت أن تقيم صرحا عاليا هو فى رأيى الوسيلة لكل ماسواه من أسباب الوحدة التى لا سبيل لنا اليوم إلى تصور أشكالها (١) .

---

(١) راجع ترجمة للدكتور هيكل فى كتابى « قصة الأدب المعاصر » ج ١ ص ٥٢ — ٦٤

وقد تخرج الدكتور من مدرسة الحقوق المصرية عام ١٩٠٩ وحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد برسالة موضوعها « الدين المصرى » ، ثم اشتغل محرراً فى الجريدة ، فأستاذا بمدرسة الحقوق ، فرئيسا لتحرير السياسة ، فوزيرا للمعارف والشئون الاجتماعية ، ثم رئيسا لمجلس الشيوخ .

إبراهيم المازنى(١)

صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله . لأننى ما رأيت أحدا من المعجبين به إلا وهو يجهل بعض مزاياه . . وليس ذلك لخمول فى الذكر . فقد بلغ – من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية . وليس ذلك لغموض فى النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة إلا عرف أنه من أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفاء . ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله – أو بكل حقيقة فضله – لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال . وبعضهم يسميها « ملكة السخرية » ويخيل إليه على أنها مثال السخرية التى اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هى بها . لأنها تخلو فى جوهرها من نكاية السخرية التى تلازمها . فلا تنطوى على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية ، وإنما هى على ما عرفتها واختبرتها ، شىء آخر غير السخرية وان كانت شبيهة بها : هى حب « المعاكسة البريئة » أو هى الدعابة التى لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق فيها بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين . لم يكن يبالى أن يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالى أن يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه . فيسبق المنكر والحاسد إلى القدح والإنكار ! ولم الجهد والعناء ؟ لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالخيال ، لأن غايتها إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال . . فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء . وكان يرى أن الناس يضنون بثنائهم كأنه شىء لا غنى عنه . فكان يريهم أنه فى غنى عنه فعلا . وكأنه يقول لهم : « إن استطعتم فقولوا فى أدبى وفنى ، وفى شخصى وسيرتى ، أكثر

---

(١) بقلم عباس محمود العقاد .

مما أقول » . ويحسب بعضهم أنها فلسفة حياة ، ويحسب الآخرون أنها « مظهر » من مظاهر التحدى التى يواجه بها الناس . وليست هى بفلسفة وليست هى بمظهر . هى طبيعة فيه عهدتها منه فى غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه كاتباً أو غير كاتب ، وغاية ما هنالك أنه كان يطاوعها حينا فيسترسل فيها ، وأنه كان يكفها حينا فلا تظهر كل الظهور .

كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى ، رحمة الله ، ولست أحصى ضروب هذه المعاكسات التى كان يرتجلها أرتجالا فى أكثر الحالات ، ولكنى أذكر حادثا منها له اتصال بجانب منسى فى تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التى تفسر الأقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التى يسميها بعضهم فلسفة حياة . قل من يذكر أن فقيدنا العزيز شغل بالموسيقى فى عنفوان شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا كثيرة فيه ، واستطاع أن يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين . والواقع أن الذين عاشروا المازنى وخبروه يعلمون أنه من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى من شدائد الأيام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه فى هذه الأحوال إلا بالإكثار من المرح والتبسط ، فلا يعرف جليسه أنه فى شدة إلا إذا تحول مزاجه من الطبع إلى التكاف المحسوس وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم فى مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا نمشى مسافات طويلة لنتجنب المرور ببعض الأماكن التى تنبعث منها روائح الحانات والنفايات . ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من أبغض الروائح إلى الأنوف ، لأنه اراد ان يلقى درسا حاسما على محبى « الشيطنة » من التلاميذ .

وكان أولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون أنهم يحاربونه فى ميدانه حين يعمدون إلى ضروب المعاكسات المدرسية التى يغيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا

حصته ووضعوا فى المحابر حمضا كريه الرائحة لايطاق فى مكان محصور ، وسبق إلى وهمهم أن الحصة ستضيع فى السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذى جاء به منها وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء فى المدرسة ولكنهم لم يلبثوا هنيهة بعد دخوله إلى الفصل حتى أدركوا أنهم فى وهم بعيد ، لأنه لم يسأل ولم يغضب ولم يبد عليه أنه فطن لشىء غريب ، ولم يزد فى أنه مضى بنفسه إلى النوافذ فأغلقها وإلى الباب فأغلقه ، وأخذ فى الدرس وهو على أتم الراحة والنشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والأبواب ، وهو يزعم لهم ، فى جد وسكون ، إن الحجرة المغلقة أصح من تيار الهواء وكان ذلك هو الامتحان الأول والأخير !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التى يعانيها الكاتب إذا حاول أن يعيد الكتابة فى موضوع من جديد . فانها مشقة جهد ومشقة ملل فى وقت واحد ، ولكننى رأيت المازنى يعيد كتابة المقرر فى التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه فى طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وأنه سيطبع المذكرات على التوالى بعد إعادة تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على خوان الأمانة درسا فى عاقبة الخيانة والخداع إلا أننى أظلم ملكات المازنى كلها إذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة إلى الإرادة دون غيرها . فان الذكاء المفرط فى الحقيقة هو صاحب الفضل الأول فى صبره على جهد الإعادة ومللها . لأنه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة الانجليزية وأن يلخصه وهو يقرؤه وأن يترجمه وهو يلخصه ، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد . وهى أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهة التحضير ، إلا أن السرعة فى الفهم والترجمة الصحيحة أهون ما فى هذه الملكة النادرة ، واقول النادرة وينبغى أن أقول الوحيدة فى تاريخ الآداب العالمية . فاننى لا أعرف فى آداب المشرق والمغرب نظيرا للمازنى فى هذه الملكة التى سميتها بعبقرية الترجمة

إنه يترجم النثر فى أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان ، ويترجم الشعر فى أسلوب كأسلوب البحترى والشريف ، ثم لايخرم فى ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى ، بل يأتى بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوربى ـ العالمى ـ بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها فى لغة الضاد .

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم فى مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ومن دواعى الأسف الشديد أنه هجر الشعر وأنكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعى الأسف الشديد أن عبقرية الترجمة التى انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربى ويغنى الفقيد بعمل من أعمالها الخالدة عن كتابة الضرورة أو كتابة الظروف .

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة أخرى من أنفس الملكات التى يرزقها الأديب والفنان ، وهى ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو عن روية .

أنطون الجميل (١)

١٨٨٧ — ١٣ يناير ١٩٤٨

فتشت عن مصدر حديث العهد منا أرجع فيه إلى حياة أنطون الجميل قبل أن زفه لبنان الأشم إلى مصر الوادعة المطمئنة المرتفعة الأهرام ، فلم أجد إلا سطراً أو سطرين لا تشفى غلة باحث ، ولا تسد حاجة دارس (٢)، وإذا بمعجم المطبوعات العربية ، لسركيس يقول عنه ولا يزيد : « محرر جريدة البشير ومدرس البيان فى كلية القديس يوسف فى بيروت ومنشىء مجلة الزهور بالقاهرة » . وإذا « بتاريخ الآداب فى الربع الأول من القرن العشرين » لمؤلفه الأب لويس شيخو اليسوعى لا يعدو أن يقول عنه فى ثلاثة أسطر : « محرر البشير والزهور » . نشر فى بيروت « البحر المتوسط » وفى مصر « أبطال الحرية » و « تعريب كتاب السيدة دوبوك — الفتاة والبيت » . وإذا « بتاريخ الصحافة العربية » للفيكونت فيليب طرازى يشير إليه فى كلمة واحدة على أنه كان محرراً فى صحيفة « البشير » السورية فى ذلك الزمان . أى فى العقد الأول من القرن العشرين ولو أن الأديب أو الشاعر يترجم لنفسه لاستراح المترجمون من كثير مما يلقونه من العنت . وقد صنع ذلك الشاعر محمد الأسمر حين ترجم لنفسه فى مقدمة ديوانه « تغريدات الصباح » فعرض نفسه كما صنعه الله وكما مرت عليه الحياة ، فأراح بذلك السائلين — بعد عمر مبارك (٣) — عن نشأته ومحيطه الذى عاش فيه .

---

(١) بقلم : الشاعر محمد عبد الغنى حسن

(٢) لدى الأديب محمد كاظم المحرر بالأهرام كتاب كامل عن الجميل لا يزال مخطوطا .

(٣) توفى الأسمر رحمه الله فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦

وإذا صح ماذكر أن أنطون الجميل ولد فى بيروت سنة ١٨٨٧ فانه يكون أصغر من تولوا تحرير « البشير » سنة ١٩٠٨ — أى أنه عهد اليه بتحرير هذه الصحيفة المعتدلة المتزنة وهو فى الحادية والعشرين من عمره . ويكون كذلك أصغر الأساتذة الذين تولوا التدريس فى كلية القديس يوسف ببيروت ، لأنه اشتغل بالتعليم قبل اشتغاله بالتحرير ، وأظن ما ذكر من أنه نزح إلى مصر سنة ١٩٠٧ يحتاج إلى شيء من التصحيح ، لأن الثابت من سجلات صحيفة البشير أنه تولى تحريرها سنة ١٩٠٨ وأن الانقلاب العثمانى حدث فى العام نفسه ، فتكون هجرته إلى مصر بعد ذلك التاريخ ! والراجح أنها كانت فى سنة ١٩٠٩ . ولا شك أن مواهب أنطون الأدبية والخلقية قد ظهرت فى أول حياته وجذبت اليه الأنظار ممن يقدرون قيم الرجال . ويدل على ذلك اختياره لتحرير صحيفة البشير ، فقد كانت — كما يقول مؤرخ الصحافة العربية — من أرقى الجرائد التى يركن إلى صحة أخبارها وصفاء مبادئها وإخلاص خدمتها الآداب والعلم والوطن — وكانت من أقدم الصحف اللبنانية أنشأها الأب أمبروسيوس مونو رئيس الآباء اليسوعيين فى سورية سنة ١٨٧٠ وكان غرضها دينيا أول الأمر وعبارتها ركيكة كبقية صحف ذلك العهد ، وكان لا يقرؤها إلا جماعة الكاثوليك لأنها لسان حالهم . فلما تولى الأب سليمان غانم رياستها والأديب خليل البدوى تحريرها ١٨٨٢ - ١٨٩٠ ظهر تجديد فى عبارتها واتجاهها الأدبى حتى صارت مقروءة من المسيحيين وغيرهم . وجرت العادة أن يتولى إدارتها أب من رجال الدين وتحريرها نابغ من رجال الأدب . فاذا رأيت فى إدارتها الأب أنطون صالحانى والأب هنرى لامنس والأب لويس معلوف رأيت فى تحريرها يوسف البستانى وخليل البدوى ورشيد الشرتونى وأنطون الجميل الذى أسلم تحريرها بعده إلى الخورى بولس طعمة الذى كان من كتاب مجلة « المشرق » المحققين .

وكانت هجرة أنطون الجميل إلى مصر طلباً للحرية . كما نزح إليها كثير من الأحرار اللبنانيين فوجد فوق ثرى مصر السماء التي تتردد فيها أغانيه حرة طليقة من القيود . ومصر كانت — ولا تزال — ملجأ للأحرار ممن تتسع البقعة الكريمة من الأرض لأحلامهم وآمالهم . فانطلق أول نغم له بالحرية في مسرحية صغيرة أسماها « أبطال الحرية » تولت مطبعة المعارف بالفجالة طبعها على نفقتها سنة ١٩٠٩ وجعلت شعارها العلم التركي بهلاله الواحد ونجمته الواحدة وتحتها الكلمات التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية : — الحرية ، المساواة ، الإخاء ، وقد كان أنطون الجميل معجباً بهذا الانقلاب العثماني الذي كان الدستور نتيجته ، ومعجباً بأبطال هذا الانقلاب وخاصة « نيازي » و « أنور » اللذين كانا بطلي مسرحيته . والمسرحية في ذاتها صغيرة الحجم بسيطة الحوادث ليس فيها ما في المسرحيات من براعة الحوار وحبكة الحوادث ، ولكن فيها حسن الإنشاء وجودة السبك والاعتماد على العنصر الخطابي . ولكنها على الرغم من بساطة الفن المسرحي فيها لقيت ترحيباً كثيراً من الصحافة العربية والتركية والأوربية ، وأثنت عليها مجلة « اجتهاد التركية وترجمت قسما كبيراً منها نشرته مع صورة للفقيد . وقد مكن تضلع أنطون الجميل من الفرنسية أن يلفت إليه أنظار الصحافة الفرنسية فاشتغل محرراً في جريدة « البيراميد » التي كانت تصدرها دار الأهرام ، وكان ذلك أول اتصال للفقيد بهذه الجريدة . وإذا كانت الصحافة جذبت أنطون الجميل إليها في جريدة « البشير » بعد اشتغاله بالتدريس فانها جذبته من جديد في مصر إلى صحيفة « البيراميد » . ثم جذبته ثالثة إلى إنشاء مجلة أدبية ، فكانت مجلة « الزهور » التي ظهر أول أعدادها في أول شهر « آذار » أو مارس سنة ١٩١٠ . فكان ذلك توافقا لطيفاً بين اسمها وبين شهر الربيع الذي تفتحت فيه للحياة ولما عمل موظفا في الحكومة المصرية ابتعد عن الميدان الصحفي إلا ما كان له من بحث

أدبي هنا وهناك ولكنه حن إلى الصحافة أو هى حنت إليه ، فأسند إليه رياسة تحرير « الأهرام » فى سنة ١٩٣٢ وما زال فيها حتى فجأه الموت فى صباح الثلاثاء ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ وهو عائد من عمله الذى فنى فيه كما تفنى الفراشة حول الضوء اللامع حين يغريها بلهيبه البراق ونوره الوهاج وعجيب جداً أن يتولى «الجميل» ثلاثة ألوان من الصحافة فى ثلاثة عهود مختلفة من عمره فيجيد كل لون ويبرز فيه وتنبغ له فيه شئون . فقد تولى الصحافة الدينية فى صحيفة « البشير » اللبنانية ، وتولى الصحافة الأدبية فى مجلته الشهرية «الزهور» فكانت روضة من رياض الأدب الرفيع النزيه العفيف فى ذلك العصر ، وتولى الصحافة السياسية فى جريدة «الأهرام» فكان فيها سياسياً من الطراز الذى سماه « حسان بن ثابت » الشاعر المخضرم بالطراز الأول .

أراد (الجميل) أو أريد له أن يكون «معلماً» أول الأمر ولكنه لم يمض فى الشوط إلى نهاية ولم يجر فى هذا الميدان إلى غاية وقد أراد «الحجاج بن يوسف» قبله أن يكون معلماً ، فأرادته الأقدار أن يكون حاكما من طراز شديد وأراد «حافظ إبراهيم» أن يكون ضابطاً فى الجيش فأرادته الأقدار أن لا يمضى فى الميدان إلى آخره ، وجعلته صاحب لسان لا رب سنان ، ولم تكن الصحافة عند الجميل سياسة فحسب أو لعباً بالورقة الرابحة فى ميدان يكثر فيه اللعب بالأوراق والاصطفاق بالأرزاق فى الأسواق ، ولكن الروح الأدبية كانت تمشى معه فى الصحافة جنباً إلى جنب ، فهو أديب مشرق العبارة واضح الفكرة حسن العرض ، أعانته على مهنته الصحافية سليقة أدبية وثروة مذخورة من البصر بالأساليب العربية التى تعرض الحقائق فى ثوب محكم النسج رقيق الحاشية وما أشبه « الجميل » فى الصحافة بملاح ماهر يعرف كيف يمخر بسفينته عباب بحر مضطرب لجى يغشاه موج من فوقه موج ، فهو يداور الريح ويداور الموج ويحتال على هذا مرة وعلى ذاك أخرى ، ولا يفقد اتزانه فى وسط العاصفة حتى تمر بسلام . ولهذا لم

يعرف بتحزب ولم يرم بتعصب ، بل كان يمقت الحزبية مقتا شديداً ويرى أنها سبب ما نحن فيه من بلاء واضطراب . وكان يرى الحزبية قيداً للحرية . وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته التى كتبها لديوان الشاعر « ولى الدين يكن » حيث يقول: كنت أود أن ألم بالدور السياسى الذى لعبـــه الفقيد فى الاستانة ومصر .

والحديث عن مقدمة « أنطون الجميل » لديوان الشاعر ولى الدين يكن يسوقنا إلى الحديث عن ناحية أدبية عند هذا الأديب الكبير . فقد اشتهر ببضع من المقدمات كتبها وقدم بها بين يدى جماعة من الشعراء والكتاب ، فكتب مقدمة تحليلية لولى الدين يكن فى أول ديوانه الذى طبع بمطبعة « المقتطف والمقطم » سنة ١٩٢٤ ، وكتب مقدمة لديوان الشاعر « اسماعيل صبرى » الذى طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ وهذه المقدمة هى الكلمة التحليلية التى القاها فى تأبين الشاعر سنة ١٩٢٣ وكتب مقدمة لديوان شاعر « البرارى » الذى عنوانه « بين أحضان الطبيعة » والذى طبع سنة ١٩٤٢ وكتب مقدمة لديوان الشاعر « محمد الأسمر » الذى عنوانه « تغريدات الصباح » والذى نشرته « دار المعارف للطباعة والنشر فى سنة ١٩٤٧ ، وكتب مقدمة لكتاب « ما قل ودل » للكاتب أحمد الصاوى محمد . وهى كثرة دفعت بعض الكتاب إلى تسمية الفقيد « بكاتب مقدمات الكتب » وما كان عيباً أن يتولى الجميل تقديم الأدباء أو إنصافهم من زمانهم فقد عرف بالنصفة فى الرأى والاعتدال فى الحكم والرقة فى النقد إلى حد لا يجرح المنقود ولا يعنف عليه . ولكنه نقد رفيق رقيق ، ولا أنسى أنه كان يأخذ على السهولة فى عمل الشعر ويحذرنى منها ، لأن السهولة فى الغالب مزلقة إلى الأخطاء . كما كتب ـ رحمه الله ـ فى مقدمته لديوانى . وهذا نقد رفيق رقيق لم يغضبنى بل حفظته يداً أعتدها « للجميل » واسمع نقده الرفيق لبعض ألفاظ الشاعر « الأسمر » فى مقدمته لديوانه : أما إذا ترك عالم الأحلام والأمانى وعاد إلى عالم الحقائق المجردة فإنه لا يتورع عن اقتناص اللفظة الواقعية وإن كان

الشعراء قد تواضعوا على نبذها من لغة الشعر ، ثم يمثل لذلك بقول الأسمر فى ديوانه :

واخلعوا الأرسان لستم (حمرا) واطرحوا النير فلستم (بقرا)

أليست هذه النعومة هى أهم خصائص الأدب الناقد الذى لا يتخذ النقد هراوة غليظة يضرب بها رؤوس المنقودين فينفر الناس منه ومن نقده الثقيل الشديد كالرصاص والحديد !! .

ولم يكن « أنطون الجميل » كاتباً أديباً فحسب ، ولكنه كان خطيباً عرفته منابر الأدب فى القاهرة فى كثير من المناسبات . وما عرفته يرتجل الكلام على المنبر أو يقوله على البديهة كما يفعل الخطباء المرتجلون ، ولكنه كان يعد كلامه إعداداً ويلقيه من فوق أعواد المنبر القاء فصيحاً رشيقاً بيناً فى تؤدة وأناة ، حتى يستطيع سامعه أن يتابعه فلا يمل . وما كان أبرعه وهو يضفى الفكاهة الحلوة على خطابه فيثير فى السامعين عاصفة من الضحك ويشيع فيهم جوا من المرح .

ألقى مرة حديثا أو محاضرة فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية يوم ١٦ إبريل سنة ١٩٣٦ عنوانه « صانعو الجريدة » فجمع عن الصحافة وأوعى ، ولكنه كان يرسل الفكاهة من حين إلى حين ، فذكر من أنباء التطبيع أو التصحيف فى الطباعة أن عبارة « تجديد شباب القضاء » قد حرفها العامل إلى « تجريد ثياب القضاة »

وكان يتخير فى خطبه ومحاضراته أطرف المناسبات مما توحى به بديهة حاضرة أو خاطر سريع . خطب مرة فى تأبين الشاعر إسماعيل صبرى وكان الحفل فى ليلة من ليالى التمام للقمر ، فابتدأ الكلام قائلا : « إذا رأينا القمر ساطعا فى كبد السماء — كما نراه فى هذه الليلة — لا نتساءل من أين أشرق على الدنيا ... » . وحاضر مرة فى الجمعية الجغرافية عن الصحفيين الجوالين المتنقلين فقال : إنهم يضربون فى كل جهة من المدينة وفى كل مدينة من القطر وما أشد ما تنطبق عليهم الآية الكريمة المنقوشة أمامكم فى صدر هذه القاعة « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا

فامشوا فى مناكبها » . وقد لفت نظره هذه الآية منقوشة على جدار القاعة فاستغلها لموضوع محاضرته .

كان « الجميل » كثير التدقيق لما يكتب ، كثير التدقيق فيما يستطيع وكان يحدثنى أنه يود أن يرى الكتاب العربى خالياً من أخطاء الطبع . وقد أخذ نفسه بهذا حين أصدر مجلة « الزهور » ١٩١٠ فهى المجلة العربية التى كاد ينعدم فيها الخطأ المطبعى ، وتحاكيها فى ذلك مجلة « الضياء » للعلامة الشيخ إبراهيم اليازجى وقد ظهرت هذه الدقة فى كثير من نواحيه ، فقد كان دقيقاً فى مجلس الشيوخ حينما كان مقرراً للجنة المالية ، وكان دقيقاً فى التعبير حين يعالج مسألة سياسية فى الأهرام وكان دقيقاً حين يورد الإحصاءات . وكان دقيقاً حين يستشهد بالشعر . فيتحرى أصح الروايات فيه ، وينسبه إلى قائله نسباً صحيحاً مهما كلفه ذلك من عناء فى البحث عن قائله . ولا أظن التوفيق خانه فى نسبة شعر إلى شاعر إلا مرة واحدة فى المقدمة التى كتبها لديوان «ولى الدين يكن» ، فقد نسب بيتين إلى «ابن الرومى» وهما من شعر «مهيار الديلمى» فى قصيدته البائية التى يقول فيها :

لا تخالى نسباً يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب

ولا أعرف عن أنطون «الجميل» أنه نظم شعراً أو حاول أن ينظمه ، ولكنه كان فى مجموعه قصيدة شعرية متسقة النغم ، وإذا كان الوزن فى القصيدة العربية ركناً من أركانها . فقد كانت حياة «الجميل» متزنة فى كل نواحيها ، فما عرف عنه إسراف فى شىء أو إفراط فى أمر . اتزن فى الأدب فكان أديبا وناقداً خطير الرأى واتزن فى السياسة فكان رجلا معتدلا يحبه رجال الأحزاب وقد فرح كل حزب منهم بما لديه واتزن فى علاقاته مع الناس فأحبه الكبير والصغير ولا أعرف أنه أسرف فى شىء إلا حين أسرف على نفسه بالعمل حتى مات ضحيته . فكان بذلك مستجيباً لدعوة « جوزيف كونراد » الكاتب الإنجليزى حين قال « اعمل حتى تموت » . ومن عجب أنه لم يقل الشعر على حين نبغ فيه ثلاثة من رفاقه فى عهد التلمذة بلبنان

وهم (شبلى ملاط) و (بشارة الخورى أو الآخطل الصغير) و (وديع عقل) الذين تغنى آثارهم عن أخبارهم .

على أن جيله من الرفاق قد أخرج جماعة من الأدباء هم (مسعود درويش) و (إبراهيم المنذور) و (شكرى القرداحى) و (ابراهيم سليم النجار) و (يوسف البستانى) .

ولكن هؤلاء الرفاق تفرقوا ، ومشت بهم مناكب الأرض أو مشوا فى مناكبها فدعت أسباب الحياة (أنطون الجميل) إلى مصر ، وادخرته أسباب الموت فى ثراها .

فهرست

الجزء الرابع من كتاب «صور من الأدب الحديث»